أسماء فقط

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 9396 / 2020

الترقيم الدولي: 5 – 504 – 838 – 977 – 978

الكتاب: أسماء فقط

المؤلف: خلود البدري

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

أسماء فقط

رواية

خلود البدري

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إلى من طرقوا كثيراً على باب ذاكرتي،

حيث احتشدت بكلّ هذه الـ«أسماء فقط»،

ثمّ أبحروا بسهل في زوارق الأدمغة!

هذه الرواية بشخصيّاتها، ذات الـ(أسماء فقط)، ليست كالتفاتة إله الموسيقى «أورفيوس» لحبيبته «يوريدس»، إذ أعادها بتلك الالتفاتة إلى العالم السفلي الذي أخرجها منه، فأنا لست بصدد سرد حكاية الفقد، هناك، لكن عملت فيها على تنسّم حياة جديدة مغايرة لشخوصها، هنا، علّها تعيش من جديد في ذاكرة من يقرأ تفاصيل حياتها.

جبار

يظفر بي خوفٌ، أتخيّله أصواتاً تتعالى في ليل غابة، يكوّرني كقبضة يد...

أُهمهم: ما أبأسه من جبن، هذا الذي يباغتني بين فينة وأخرى، وما أشدّ ابتئاس منهله!

أُفكّر: أما زلنا نضحك على أنفسنا؟، يا تُرى!، أم باتت أقدارنا تضحك علينا؟

ها هي اليوم أمامي أسماء أُناس عشت معهم، مرت شخوصهم في سفْر أيامي، بينما أُردّد للحين صدى هسيس سنوات مزّقتها، بحلوها ومرّها، فإذا بها تُرجعني إلى الما وراء، كقصاصات ورق ألصقتها في تخوم الذاكرة، لأبتدئ بتدوين فصل أول من حياتي...

... تحتدم أشباحه، متقافزة، فأنتشلها من بئر نسيان!

كأنّي أسمع قرعا لطبول، يزداد صخبا في رأسي كلّما مرَّ زمان، لا تفارقني أصواتها.

أتشرّب الماضي، كجرح لا يتطبّب، رغم كل محاولات النسيان.

الوقت لم يعد يُثيرني...

... جُلّ ساعاته لن تتمخّض سوى عن رؤى لا تتوانى في الظهور لمخيّلتي، فارضة سطوتها باستبدادها، تندثر حيناً لكنّها تشرئب كطفح جلدي على كامل جسدي أحياناً!

وإلّا، لو لم تكن كذلك، لماذا تظلُّ الكوابيس تراودني كلما هممْت بوضع رأسي على وسادة؟!

نعم، لا ريب، مكمن الألم تشرّبني!

تُلامس يداي، معاً، ما أصطخب داخلي كلّ تلك الأيام.

أفقت أم لم أفق، سواء، فتسلسل شريط الذاكرة، حيث يُداهمني، لم يزل يفرض سطوته علي.

يقال ((لكل أجل كتاب))، هكذا حفظته، فكيف يتسنى لي التملص من أحداث تراوغني بكل هذه اللجاجة؟

تضجُّ منكبّةً على روحي المسكينة، حدّ القهر، كعاصفة رعدية أو كوابلٍ مطر!

كان كلُّ ما يشغل رأس أبي، حينذاك، ألّا يفرط بأهله على الرغم من جبروت أمه وقسوتها معه.

أمّا نحن بناته الثلاث فغير آبه بنا، بتاتا، علينا الامتثال لما يُريد منا أن نفعله، شئنا أم أبينا، وإلّا سيكون لنا سوء العاقبة في الحياة الدنيا ثم يطالنا عقاب نظيرتها الآخرة حتما.

بهذا كان يُصرّح قبالتنا، دائما، كأنّ اسمه على مسمّى: (جبّار)!

سئمنا ممّا يقوم به: مراعاة جانب على حساب آخر، هو ((بناته الثلاث))، حيث كفّة ((أمه و أهله)) لا بدّ في عرفه أن تكون هي الرابحة، ولتذهبْ كفّتنا للهاوية، فلا يعنيه أنه يتجبّر علينا، يغمط حقّنا، نحن البنات اللائي ليست لنا سوى رهبة طاعته خوفاً من بطشه، أو تجنّباً لازدرائه، إذ أن طباعه، كما هي، لن تتغير لأجلنا قيد أنملة.

يا لله، ليس ثمة غيره، ممّا يخطر على بالي: كنت أُصارع حربا مستعرة في أعماقي ضدّ هذا الـ(جبّار)!

أرفض أوامره بكلِّ قوّةٍ مناكدةً و معاندةً، رغم صغر سنّي، فكان لزاما عليه أن يحار في كيفية معاملتي لاتّخاذ قرارات حاسمة بشأني. هكذا وجدني دائمة التصادم معه، نعم، فكلّما وضع في تخيّله سلّما لحياتي كسرتُ درجاته بمعول ممانعتي، هادمة السلّم كلّه!، سوى درجة واحدة أبت إلّا أن تُعيق ضربات هذا المعول. إذ أنه، سامحه الله، لم يكتفِ بالارتباط الروحي المعنوي بينه وبين أخوته، لا، بل

كان يصر على رابطة دم معهم يغذّيها بمصاهرات، بعضها مريب، لكن جُلّ ما فعله لم يجنِ منه أية نتيجة.. باءت مساعيه كلّها بالفشل.

سايرتُ الأيام، متمعّنة بصيرورتي، تغمرني عيشة اللاشيء التي جبلنا عليها بدأبنا كعائلة واحدة، متكدسة في علبة صفيح، تربطها مجموعة أحكام، بل لأقلْ تُرّهات، بلا هوادة كنت أفضُّ عنها صخب الوقت فتَضحى مجرد وعاء...

تُجفلك أيامه، فتعجّ زمنك ملحاحا، ثم لوهلة تُكسّر العقارب، عقارب ساعاته، تلدغها لئلّا تلدغك!

تعصف بك، تُدخلك في متاهة بحث عن ((أنا))، فتخرج من خيالاتك خالي الوفاض برؤى مهلهلة كثوب بُلِي، متهرّئاً منذ أمد بعيد، وما زلت تحتفظ به، في أحد أدراجك، ظنّاً منك بأنّك سترتديه يوما ما، متناسيا نظرة الناس من حولك، حيث تكون منشغلا به: توليه انتباهتك القصوى حدَّ أن تُرقِعِه بأتون آلامك!

هكذا، وجدتُني دائما، في خضم هذه الظروف.

ظللْت حينا أدفع عني غربة، حيرى، تستوطنني وأنا معهم.

عند ناصية حلم شدّني صوتٌ، قديم بعيد، تراءى لي أنّه أقرب إليّ مما كنت أعتقد، ذات ليلة، يحلّ، منبثقاً منه خيط نور في أعماقي، كدم متخثر على جرح قديم بدأ ينقشع عن مكانه بفعل زمن مؤلم!

عيناي تطلّان من بعيد، كعيني فهد، فأحسب وميضهما يُضيء عتمتي، بكلّ زواياها!، فيما أميل برأسي حيث الجهات الأربع، معتكفة في مكاني، أرنو باحثة عن مخرج، من حيرتي، فتكبلني سلاسل أبت المغادرة!

ثمة أقمار، كذلك تهلُّ شهريّاً، تراوح في رأسي: تضمحلّ فتختفي ثم تُعاود مرة أخرى دورتها المملّة معي.

لذا ليس من السهولة أيُّ خروج عن تلك النمطية التي مُنيت بها إلّا بتسجيلها، على ورق مثلاً، علّها تفكُّ أسر روحي ثم تغادرني بسلام.

أصبحت كطائر أطْيش، أزرق القدمين، حين حططْت بأيامي على سفينة مبحرة نحو مجهول.

ها أنا ذي، الآن، أكافح للحيلولة دون أن يكون الأب مصدر قرار بالنيابة عني لما ستكون عليه حياتي.

إنْ تأزمت حالتي النفسية، حدّ السوء، شيء لا يعنيه البتّة، نعم، فما معنى أنْ يتعكّر صفو عيشي بنظره؟!

في أحد الأفلام، على لسان بطله، شدّتني هذه المقولة: نحن ما نتذكّره.. لكن بطبيعة الحال نحن أيضا ما ننساه.

هيدرا

لا شيء يضاهي إحساسك بالاقتلاع من الجذور، أووه، سوى ابتعادك عن تربتك الأولى ومحو تاريخ حياتك من ذاكرة أهلك.

تحطُّ طيورك في سماء وطن ثان، اليوم، فهل تُعوّضك رحلة للمجهول ما كابدت؟!

تجتاحني هواجسي، الآن، ناشرةً شباكها على روحي.

علمتِ أخيرا أن الحياة سمفونيّة، تعزفها أصابع القدر، ليست (هيدرا) خالدة، لا، فليس لكِ تلك الأذرع العديدة، ولا تلك الرؤوس المتجدّدة، لتستبدليها بما عُطب منكِ.

عموماً.. تلكم قطع متناثرة، شتّى، حلّقت كلقالق مهاجرة ابتنت أعشاشها في سطوح عالية.

ربما الظروف مع القسوة، هناك؟!، هُما من لعبا دورا مشتركا أدّى إلى تواجدي هنا: في بلاد الصقيع...

كان إكمالي دراسة عليا جُلّ ما أبتغيه من حياتي، بعدما حصلت على شهادة بكالوريوس، لهذا بدأت بتعلّم «كورس» في اللغة الروسية.

أحدّق من نافذة الممر، إلى خارج النزل الدراسي، لأتلهّى بتألق الشوارع، ذات الإضاءات المتلئلئة، فيُدهشني نزول الثلج عليها، رشيقا خفيفا متمايلا، كأنه يعزف موسيقى الطبيعة الصامتة، يُراقصها، فيكسوها بلونه الأبيض.

تهجس إنْ تأمّلت الأشجار المُتجرّدة من أوراقها، على امتداد الأرصفة، أنها أخشاب يابسة ميتة، منظرها يوحي لك بذلك، مع أنها تختزن الحياة في داخلها، يا لله!، أمّا في الربيع فتنفض عنها البياض، ليحل بدلا عنه الاخضرار، كأنها تعود للحياة من سبات شتوي قاس.

محركات السيارات القريبة من سكني الجامعي، هنا، دأبت على العمل طوال ساعات الليل، نعمْ، وإلّا لن يستعملها أصحابها صباحا، بالتأكيد، ممّا يضطرّهم لخسارة بعض المال، عند تشغيلها من جديد، مع الوقت طبعا.

هنا، حيث الجامعة التي أدرس فيها، تعرّفت على زميلات دراسة من جميع بقاع العالم، شاركت في فعاليات شعوبهنّ، فأقمنا بين حين

وآخر مسابقات للتعارف من خلال عدة أنشطة فنية ثقافية مختلفة، كالطبخ والغناء والرقص والموسيقى والفلكلور الشعبي المتمثل بالملابس وبعض العادات المُتّبعة في كلّ بلد من بلداننا، كما اتفقنا أيضا على أن تُعدّ أيّة واحدة منا وجبة طعام مميزة، في مطبخ بلدها!، فطبختُ رزّاً بشعيرية مع قطع من لحم دجاج مُسبّك، على الطريقة العراقية، إذ كنت قد أتقنت هذه الطبخة مؤخّرا، متلذّذة بطعمها من بين يدي أمي قبل سفري، وحقّاً تميزتُ حينها كعراقية ببصمة خاصة في الطبخ اللذيذ.

زميلاتي الروسيات كُنّ يتطلّعن للشعيرية، يحسبنها ديداناً، فأخبرتهن كيف تُطبخ غاصّةً بضحك هستيري من حركة أصابعهن مزيحات حبات الرز عن بعضها خلال تطلّعهن بتقزز لخيوط الشعيرية!

أخيراً.. كُلُّ ما هيأته من طعام أُكِل، تماما، لم يبق منه حتى فتافيت!

ثمة حيوات تبثك سعادات، نعمْ.. بجمع «سعادة»!، وهنالك حيوات أشبه بموت بطيء، أووه.. بميتات بطيئة؟، لكن لا بدّ من أمل في روحك يجعلك صالحا للعيش ضمن المعقول.

قد يقتحم حياتك أحد ما عنوةً، بحب أو بفضول، كي يجذبك لعالمه...

يبدو لوهلة أولى ألّا طائل من الممانعة، أيّة ممانعة، لكنك تكتشف بعد مضي تلك الأيام أنّك لم تعش سوى هذه الساعات وأنّ حياتك لم تكن إلا بعض أرقام تضَاعَفت بها سنوات عمرك.

هنالك أمر هزّني، ملقياً بي للضفة الأخرى، لذلك أُؤنّب نفسي كلّ مرة حين أستذكره: من اقتحم حياتك فحطّم حصونك وأسوار نفسك، بعدما شرعت له باب روحك، لماذا يكون نصيبك منه إبعادا أبديّاً؟ أقول الأقدار، تحديداً، فيتقوّل متحجّجاً بالمجتمع والناس! هل كلانا غطّى وجهه بقناع الزيف، تزويراً أو تغشيشاً، فكانت نتيجة ما وصلنا إليها مُحتمة؟ ظهرت بعد حين وجوهٌ أخرى، قادرة على التلوّن، فقِرِر نزع الأقنعة...

جينيا

عزّزتْ محادثة صديقتي البريئة (جينيا)، بعد ذلك، ما حاولتُ أن أكتمه، مُذ حطّت قدماي على هذه الأرض، حيث صدمتني الغربة، التي فارقت لأجلها أهلي!، فجعلتني مضطربا.

كذلك تفاجأت بالنزل الجامعي! لأنني لم أكن أتوقع أن أجده بهذا الحال. صحيح.. بدا لي نظيفا مرتّبا ذا تدفئة مستمرة.. مع ماء ساخن يتوفر على مدار الساعة.. لكنّ وضعه كمكان غير ما تخيّلت: سكن قديم دُهنت حيطان غرفه بالبرتقالي...

((آآآه كم كرهته؟ ترسّب كرهه داخلي من كثرة ما سمعت أمي تُظهر كرهها له. كانت كلّما لاح لعينيها صرخت: يزعجني هذا اللون!)).

ظلّ المترجم الآلي منقذي منذ اليوم الأول، فاستعنت به في حواراتي مع الجميع، لكنّه أزعج البعض، فضلاً عن كونه يتطلّب

مني بعض الوقت للرد على سؤال أو استفسار، حيث لاحظت مدى الضجر على من معي في القسم: حين أُحدّثهم ينتظرونني لأسمع وأبصر ما يلقيه لسمعي وبصري. لقد كانت عملية شاقة، لا ريب في ذلك، لكن ما باليد حيلة، كما يقال، فاللغة الروسية صعبة، حدّ العسر، ليس من السهولة تعلّمها، إلّا بعد متابعة مجهدة طويلة، تتطلّب مساعدة ممّن معك من الطلبة لتقديم النصح. نعمْ لذلك وجدتني – منذ البدء بها – في متاهة حروف، تختلف عن نظائرها في اللغة الإنكليزية، يُقلب بعضها إلى أصوات تتغير فيها تماماً، أي كلّيّاً لا جزئيّاً، هذا غير معاناتي من الكلمات ذات المقاطع الطويلة حيث حفظي لها بطيء جدا.

طلبت مني (جينيا) مشاهدة صورة كلب صغير، معروض لتبنّي العناية به، وأن أشاركها أسفها عليه: مسكين.. كيف يتحمّلون أن يعاملوه بهذه القسوة؟!

ثمة حالةٌ داخلي لم أتبيّن كنهها، ربّما تبسّمت حينها، ثم بعدما غادرت لغرفتي انكفأت على نفسي مختنقة بغصّة بكاء حاولت به أن أزيح عني مَراراً مكبوتا راح يصعد من معدتي!

أخيرا استقررت على ما جال في رأسي من سطوة حنين، عطّل مشروع البقاء لإكمال الدراسة هنا، فاتّخذت قرارا مفاجئا بعودة

معاكسة، من جديد، متيقّنة بأنه الأصْوب في حياتي للآن: لقد فُخرت بحرٍّ جفّف عظامي شاويا بلهيبه لحمي، حتى أذاب شحمي، إذاً كيف بي في بلد يتساوى زمانه بمكانه ليصبحا على غير ما اعتدت عليه؟! فالمساءات والنهارات فيه تختلف تماماً عمّا في بلدي، العراق، حيث الساعة العاشرة مساء بعض الأحيان ذات شمس مشرقة وأحيانا أخرى نظيرتها الثامنة صباحا ذات جو مظلم! معظمَ الشتاء شوارعه متجمدة، جليديّة، تصيبني باصطكاك عظام في طقس لا أتكيّف معه، فيكاد يشلّني، أنا ابنة الجنوب، العراقي، التي تتلفلف بلحاف ساعة وصول البرودة الشتائية إلى ست درجات! أنّى لي أن أصنع بسالب 30، غالباً، أيْ: أيّة ملابس تُخفّف برودة العظام في هذا الطقس البارد الشتوي الذي تصل درجته إلى عشرات تحت الصفر؟! لذلك أُضطرُّ لأنْ أدسّ في زوجيْ حذائي ورق جرائد، كي يُخفّف عن قدميّ تجمّدهما، مع أنهما مبطّنان بفرو روسي!

كأنّي نُفيت إلى هذا البلد، روسيا، غريبةً، من الغرائب لا الغريبات!، أضحتْ مرات تُضحكني و أخرى تُبكيني.

هنالك، حتماً، أهمس: الزمن سيّدكِ..

أمّا أنتِ فلست سوى شخص عابر، يمرُّ ليطوي يوما كالمعتاد، كأنّكِ لم تكوني إلّا بعض ذكريات برؤوس من أحبّك فقط.

تلك الحياة، كلّها، خسرتها برهانات فجّة مملّة.

ربّما أطلُّ عليك مرة أخرى، قريباً، دون أن أحمل بيديّ سوى عبارة ((أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد))..

أحفظها، أردّدها دائما، كي تظلّ تعويذتي.

غانم

إنْ كانت خطوةٌ واحدة إلى أمام نجمةً تُضيء طريقاً، مهما بلغ طوله، فما بالك بخطوات عديدة؟

عيناك الثاقبتان، كعيني صقر، تعوّدتا أن تلتقطا حركاتي.

أنا، التي تبحث عني، كلّما تنفّست فرحا قديما طواني حزن جديد!

ليلا لملمت ملابسي المتناثرة، هنا أو هناك في أركان غرفتي، وضعتها في حقيبتي السفرية هاوية بجسدي الضئيل على كرسي بانتظار ما سيستقر عليه تفكيري.

عدت أخيرا إلى نقطة بدايتي متفحّصة حركة الناس من حولي، أرنو لباعة متجوّلين وعربات حمل، بعدما غادرت المطار هناك، أجرجر نفسي الخاوية، وها أنا في مرآب هنا، من جديد، ليعيدني بإحدى سياراته إلى دياري.

حيثما عزفت فصولي، مع تساقط أوراق العمر!، يغدو داخلي يابسا مصفرّاً، كشجر خريف، تختلجه مكابدات سابقة، ماضية، فتختلط أصوات في رأسي بينما ألج دوّامة الواقع!

تُنبّهني أصوات الباعة المتجوّلين، خصوصا ترديدهم لازمة واحدة عبر مكبّرات بلا هوادة، فيتزاحم أمامي صبية يحملون صواني معجنات على رؤوسهم يرغّبون المسافرين بشراء بعضها منهم.

يتهادى قبالتي (غانم) ابن خالتي «وداد»، الصبي المشاغب المشاكس، يجري خلف عربة خشبية يجرّها حمار رمادي تسير بجانبه امرأة تتوشح بعباءة سوداء تتحزّم بأطرافها فتلتفّ على منتصفها لتبدو عند نظرنا إليها كأنّها بالون منتفخ. يُحمل على العربة الخشبية سعف نخيل يمتد كذيل فيها، خارجة أطرافه منها تسحل فوق الأسفلت، فتلتفت أنظارنا نحن الصغار إلى حركتين للحمار والمرأة مع صوت احتكاك لتماسّ السعف بأسفلت الشارع محفّزاً إيّانا للجري خلفهما. رأيت (غانم) يركض فعدوت خلفه، تغمرني شقاوة طفولة بإهدار طاقة كامنة، أراد أن يتسلق عربتها فنهرته المرأة بحركة سريعة ملّوحة بخشبة رفيعة تحملها يدها اليمنى لإخافة الحمار بها إذا حرن عن الحركة حيث تضرب ظهره ضربات خفيفة حاثّة إيّاه على مواصلة الجري. شاغلناها عدة مرات فكانت تتنبّه لنا،

تنشّنا كما تنشّ الذباب المُحلّق فوق حمارها، وفيما أجري خلف (غانم) تتجه إلى مقدمة عربتها، لتسوّي سعف النخيل، فيغافلها ساحباً سعفة دون أن يعرف ما ستنتج عنه حركته للخلف، بسرعة ومباغتة، وإذا بها ترتدّ عليّ لتستقر شوكة منها في رقبتي، يا لشقاوته وشقائي!، فقُطِع تنفّسي، حتى شحّ الهواء في رئتيّ، حينها التفتتْ إلينا، مصدومة بمنظري، فتنبّهتْ لسوء حالتي راكضة نحوي...

أسماء

ثمة فتيات صغيرات، ذوات أبدان ضامرة، يبعن علوكاً، أنواعها رديئة، بدأن بنقر نوافذ السيارة، يدويّاً بالطبع!، حيث تدرّبن على الالتصاق بالمسافرين حدّ اضطرارهم لشراء ما ليسوا بحاجة له منهن.

لامستني برودة الجو، بينما خطفن أمامي!، فوضعت يديّ على غطاء رأسي أُعدّله بهما ليقيني وخزات البرد المفاجئة.

كذلك لامستْ حاسّة شمّي رائحة حمّامات، عطنة حتماً!، فأشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى.

.....

تذكّرتُ تلكم الصبيّة الشاغلة أكبر حيّز من أفكاري، قابعةً فيه، تمر كهاجس سريع في رأسي...

(أسماء)؟!

.....

تناهى لسمعي نقر قطرات مطر على مظلّة حاولت أن أستظل تحتها مع حشد مسافرين، حيث بلمحة بصر صار الطقس رياحا عاصفة بينما غدت السماء رمادية، فيما وجدتُني مُنهمكة بمراقبة سائق سيارتنا أستطلع تصرّفاته الغريبة!

أضع قدماً لأتقدّم، إلى أمامٍ ما، فأتراجع بقدم أخرى!

عيناي تشيان بحيرتي، يا إلهي، فيظهر جليا للعِيان، من خلالهما، مدى القلق الذي يمور داخلي.

حاولتُ، حيث مظهري يُفشي حالتي، ألّا أزداد ارتباكا بهذه الحيرة.

أرتدي سترة جلدية فاخرة، صفراء، ملقيةً على رأسي شالاً حريريّاً، حيك من عدة ألوان، بعفويّةٍ أظهرتْ بعض خصلاتي الشقر، منسدلة على جانبي وجهي، فيما من خلف الشال الحريري ظهر جزء من شعري رفعته كذيل الحصان.

بيدي اليمنى حقيبة صغيرة من جلد النمر، تضاهي الجلد الذي صُنعت منه فردتا حذائي، بينما على عينيّ نظارة شمسية، مؤطّرة جوانبها بالسواد، وثمة حقيبة أخرى سوداء، وضعتها أرضاً، دسست فيها حاجيّات ضرورية.

آخر مرة طالعت مرآتي تذكّرت شكل تلكم العثة التي جذبت نظري صورتها في صحيفة، موضوعة على مشبك حديدي في مطار

بغداد الدولي، إذ تبدو كفراشة صفراء موشحة ببنّي وأسود، جميلة جدا، لكنها ليست سوى عثة تُدعى «المذنّب»: موطنها الأصلي الغابات المطيرة.. معرّضة للانقراض بسبب تعرّض مساكنها للتخريب البشري!

ظللْتُ واجمة، لا ألوي على شيء، فقط حركة غير إرادية لأسناني، عاضّة بها على شفتيّ القرمزيّتين، تُظهر ورطتي.

لم أشأ أن أُصاب بإحباط، من جديد، بعدما غادرته بإرادتي.

لولا اضطراري لهذه المغادرة، التي ستُكلّفني باهظاً، ما تكبّدت مشقة السفر لوحدي عائدة إلى تخوم حسبت انجلاء مدّها و جزْرها عن رمال عمري.

ما زال بائعو قناني الماء، الصبْية، يتسابقون للوصول إلى أماكن المسافرين!

أنهيت وقفتي تحت المظلّة بوجل وتردّد، جليّين، أُقدّم خطوة بعدها أتراجع خطوات، ...، فيما عيناي تُفصحان عن قلق يمور داخلي.

يصيح سائق سيارتنا بأعلى صوته منادياً ركّابها، يحثّهم على أن يستقلّوها، فيتقدّم منه رجل مسنٌّ يروم التأكّد من أنّها «سيارته» ناظراً داخلها بتمعّن لبضعة فتيان مراهقين ذوي ملابس عجيبة!

أنهى السائق صياحه، واضعا قدح الشاي ـ الذي ارتشفه بتلذّذ ـ على دكة طابوق، بعدما تبين له اكتمال عدد ركّاب السيارة. ثم اعتدل في جلسته، قبالة مقودها، جاعرا بصوت عال جدا: أنطلق؟ فعاجله الرجل المسن، الجالس جواره، كأنّه الركّاب كلّهم: قُل «بسم الله» وتوكّلْ.

حينها استعدت نظره المتمعّن للفتيان المراهقين، بينما هو يُحوقل، فالتفتُّ بدوري نحوهم، كوْنهم ورائي، لأكتشف أن رؤوسهم غريبة، فضلاً عن ملابسهم العجيبة، إذ تراءى لي شعَر كل رأس منها كفرشاة المكنسة، هكذا هي تسريحته، بحيث لو قلبت أيّ واحد منهم على رأسه، ممسكة إيّاه من قدميه، لتحوّل إلى مكنسة بحق! هنا ابتسمت بعدما اقترب أحدهم من السائق، هامسا في أذنه اليمنى بما لا ادريه، لأنني رأيت خصلات رأسه مرفوعة لأعلى، كأنه غمرها بـ«جِلْ» لتقف ثابتة، وقد حلق من الخلف جُلّ شعره، حتى بان جلد الرأس، فيما بدا بدنه نحيفا، كقلم، ذا عظام مُهيكَلة: كأنّها لم تكتسِ بأيّ لحم! ثم سمعت آخر يشكو إليهم حظر حسابه في «فيسبوك» من قِبل حبيبته، فما عاد يستطيع مراقبة ما تنشره من صور ولا معرفة من يعلّق على منشوراتها، لذلك ضحك أقربهم إليه، من شكواه هذه، مخفّفاً عنه: كذلك حبيبتي حظرت حسابي لأنها شكّت في علاقة لي بإحدى صديقاتها!

كانوا قد اتّخذوا مقاعد لهم في السيارة آخر الكراسي، ما درجْنا على نعتها بـ«خانة الشواذي»، كي تستوعب حركتهم الصاخبة

و مزاحهم المتواصل اللذين أبعدا الرتابة عن الركّاب الآخرين فانفرجت أسارير بعضهم.

ليس منهم ذلك الرجل المسنّ، حتما، حيث صرّح حانقا بصوت خفيض: ربّنا يستر منه، هذا الجيل، إذ تحرّر تماما من تلك القيود التي عشنا في ظلها، قبل ثلاثين سنة مضت، ليسامحْنا الله ويغفرْ لهم.

ما أبشع ما يسلبنا إياه الأحبة، أصدقاء أو أقرباء، فنبحث عن ابتسامة ضائعة في شفاه الغرباء.

تطلعت لوجوه الركاب، واحدا تلو آخر، فإذا هي مطحونة بالخوف والترقّب والعوز...

ثمة امرأة متوسطة العمر تحاور أخرى في حوالي العشرين من عمرها تشبهها، ربّما هي ابنتها، تقول: مضطرّة لأمدّه بالمال كي يكمل دراسته خارج العراق، شغوفٌ بالتعلّم محبٌّ للمعرفة، مذ تكفّلت بمساعدته.

.....

المسافة المتبقية، حتى الآن، ليست طويلة...

شاب ملتح صاح: «نازل سايقنا»، بصوت عالٍ، فانتبه السائق، رغم الصخب المتواصل للركّاب، موقفا سيارته عند منعطف قريب يفضي إلى زقاق بعيد...

ضيّقت عينيّ، ...، كما ضاقت عليّ أيامي!

أراني قلقة، متوثّبة مترقّبة، وقد تجاوزتُ عمر الصبا، أووه، أُهوّن على نفسي ما يخامرها من إحساس بأنّي بدأت الدخول إلى عتبة العنوسة كلّما أُضيفت لعمري سنة جديدة. أخالني مهووسة بحنين لأمومة، قد تُنغّص حياتي!، توّاقة لطفل في حضني، أناغيه ألاعبه، أحمله على كتفيّ، مباهيةً به الدنيا، أُقبّل أطرافه ثم أتمسّح بقماطه. أُطالعني في المرآة، كلِّ مرآة، فأُسرُّني بأنّ علامات جمالي السابق ما زالت لم تطمسها غضونٌ على بشرتي، كخطوط ضاحكة، لاح بعضها لعينيّ فتجنّبتا التمعّن فيها كثيراً.

.....

... وثمة امرأة متشحة بالسواد، من أخمصيْ قدميها إلى فروة رأسها!، قد استوت في جلستها داخل السيارة...

تذكّرتُ المرأة التي توشّحت بعباءة سوداء، صاحبة العربة الخشبية و الحمار الرمادي، حين أبعدتِ السعفة عن صدري، بعدما تنبّهتْ لها، لكنّ شوكتها ظلّت مستقرّة في رقبتي، لم تستطع استلالها، فهرع ابن خالتي، مشاغبا مشاكسا كعادته، ليخبر أمي بما حدث لي.

... فقدّرتُ أن المسافة المتبقية، حتى الآن، ليست طويلة!

جليلة

خامرني شعور مباغت، مفاجئ، بعد رؤيتي لصبايا متّسخات، على رؤوسهن قناني ماء أو بين أيديهن قطع علك، حيث تجسّدت أمامي تلكم الصبية... جارتي و صديقتي: «زينة».

راحت تُسرّني بما مرّ بها، فيما أنا فاغرة فمي كبلهاء، تبثّني بوحاً لكلّ ما ضجّ به كيانها خلال ساعات:

ما كنت أعرف، مطلقاً، بأنّ هنالك تغييراً سيطرأ على جسدي في قريب عاجل، ليس محالاً، أيْ بالذي يجعل هذا الجزء القابع بين فخذيّ ينزُّ كلّ هذه الكمية من الدم. تسلّل رعبٌ مهول إلى أعماقي، ظهر جليّا على ملامح وجهي، ثم عانيت خوفا هائلا، كاد يقضي عليّ، بينما أرى دماً لم أره سابقا. لا أعرف كيف مرّ يومي، أبداً، حيث كبحتُ فيه رهبة داهمتني بسطوتها صائحة: يا إلهي أنقذني. كان ثمة دمٌ يلطّخ لباسي الداخلي، كلّه تقريبا، طالني منه قلقٌ مديد

عشته بمفردي. ظللّتُ جالسة في مكاني دون حراك، لم أتزحزح، عند طرف قصي من غرفتي.

وفيما أتحمّل خشيتي حائرة، لا أستدل على سبب للنزف الذي لم ينقطع، رحمني ربّي بأن أرسل إليّ جارتنا (جليلة)، أم علاء، التي لطالما أنقذتني من ورطات وقعت فيها. كانت قد اعتادت أن تُلبّي بعض احتياجاتي، سيما الضرورية، وها هي تدخل بيتنا منادية عليّ بأسمي. لم أرد على ندائها، ما قدرْت، بينما بقيت ملتصقة في المكان ذاته، لا أروم مغادرته، فاقتربت مني تريد سحبي بيدها اليمنى من يدي اليسرى. أبديت ممانعة أول الأمر، مكثت ملتصقة في مكاني، فلم يكن منها إلا أن صارت بمواجهتي، تماما، كأنما تحاول انتزاع شيء لُصق بغراء.

لمّا أعجزتها الحيلة معي، أنا الساهمةُ مهمومةً و «مهضومة»، صاحت بي: ما بك يا بنت؟! نظرت إليها بتمعّن، دون أن أنبس بأيّة كلمة، ثم ندت من عينيّ دمعتان حارّتان. حدّقت عيناها بي، في شك؟، فلملمتُ طرفي ثوبي، مرتبكة، لذا اقتربت مني فاكّة اشتباك يديّ، من خلفي، بينما أخفي بقعة دموية لوثت ملابسي. سألتني بقلق: لمسك أحد؟، «يا أللة»، فأجبتها برعب: لا خالة!

.....

ثمة بندول متأرجح لساعة كبيرة، عُلّقت على أحد جدران غرفتي، يُصْدر دقّات كريهة تُرعبني أكثر فأكثر. هذه الساعة الكبيرة،

المُصنّعة بشكل قبيح، لا يُلائم حجمها صغر الغرفة. لكنّ نظرتي اتّجهت نحوها، تجمّدت عندها، بتُّ أهجس أنّ بندولها المتأرجح، ذا الدقّات الكريهة، سينبّه عيوناً للتطلّع نحوي مُثارة مستفهمة: ما الذي يجعل صبيّة، هي أنا، تُؤثر الجلوس في مكانها، متقرفصة، على الحركة لمجاراة صبايا من عمرها؟! لذلك أرزح تحت خشيتي، حيث حُمرة تلوّث بياضي، يشلّني خجلٌ ألمّ بجسدي. فقط أمدُّ إحدى يديّ تحتي فتلامسها رطوبة، قانية، تُقزّزني مجحظة عينيّ!

.....

تبسّمتْ، لكنّني استغربت بسمتها، ثم مدّت يدها اليمنى إلي يدي اليسرى مرة ثانية، كأنّها تشدّني من جديد، بعدما جلبت بيدها الأخرى أشياء تبيّنتها فيما بعد. سحبتني من على أرضية الغرفة، متنبّهة ليدي الملوثة بالدم، حيث طمأنتني بهمس: لا شيءَ خطرا.. حالة طبيعية تمر بها كل بنت. كأنّها تُدغدغ أذنيّ، نعم، مغرّدة بصوت خفيض: سأبحث لك عن عريس.. لقد ظهرت عليك بشائر النضج. حدّقت بها غير مصدقة نفسي وهي تجرّني إلى الحمّام، كنعجة «ثولة»، تنزع عني دشداشتي ثم تغسل فخذيّ وما بينهما: حافظي على نظافته، دائما، فقد كبرتِ.

لم أفهم ما أرادت أن توصله لي، ممّا قالته، فقط أنها أزالت عني كلّ ما اعتراني من خوف. حمدت الله، الذي استنجدت

به، أنِ انجلت هذه الكارثة، التي وتّرتني كثيرا، بفضلها. لكنّي بعد ذهابها لم أرتح مما لاقيته طوال نهاري، ذاك اليوم، إذ وجدتني أتململ من وجودي في الغرفة وحدي مع آلام ظلّت تمور داخل بطني.

مريم

نعم.. الذاكرة سبّورة مدرسية، إنّما في الرأس، تُكتب عليها أحداث و تمحى منها أخرى. لكنْ.. لماذا يظل بعضها عالقا، في هذه السبّورة المدرسية!، يأبى أن يغادر ممحوّاً؟ لن نصل لجواب، هنا، إلّا بحسب وقْع للحدث وأيامه شريطة بقائها من عدمه!

كنت تلميذة مستحقّة في الصفّ الأول الابتدائي، بعمر ست سنوات، ترافقني أختي الاصغر مني (مريم)، ذات السنوات الخمس، كتلميذة مستمعة في صفّي ذاته.

أنكمش منذ أول أيامي في ابتدائيّتي المدرسية، قبل نحو عشرين سنة، لكنّني أتعرّف على تلميذات بعمري، رغم انكماشي!، يتقدّمن منّي راجيات أن ألعب معهن. واحدة منهن، حسبتها أصغر منّا هاجسةً أنّي أكبرها بعام أو عامين، تخطّت بقية التلميذات متقدّمة نحوي وبيدها اليمنى قطعة حلوى أعطتها لي ((ثمة ديك برتقالي،

ثُبت على عود خشبي، حلوى مفتوحة للعيان غير مسلفنة)). أبهجني طعمها الحلو، ظلّ يذوب في فمي، مستمتعة به لأطول مدّة ممكنة.

لمحنا المعلّمة، تدخل صفّنا، بيدها اليمنى عصا، غليظة، فعمّت جسدي رعشةٌ مسرعةً للجلوس على رحلة خشبية مكسورة. نهرتنا، بصوت جهوري، فكففْنا عن الحركة قاطعين عنّا تنفّسنا! ثم طلبت منّا أن نرتدي قمصانا بيضا منذ الغد، حتماً، بدلا من هذه الأسمال التي نلبسها اليوم.

هكذا كان رهيباً يومي المدرسي الأول، في المرحلة الابتدائية، لولا حلوى الديك البرتقالي لَما تحمّلته.

أخبرنا أمّنا، أنا وأختي (مريم)، بما طلبته معلّمتنا، ليوم غد، فاشترت لنا قماش «تترون» منهية على عجالة قميصينا الأبيضين.

فرحت بقميصي، الجديد، على الرغم من كونه واسعا بعض الشيء، إذ لم يكن قياسه يُلائمني تماما، أي كتمت حنقي، لا إفصاح عن عدم رغبتي بلبسه، فأنا أعرف أمي التي ما زالت ضرباتها تدبغ جلدي.

أمّا أختي فلم يعجبها قميصها، وإنْ رأته جديداً، لذلك طلبت من أمي أن تجعل له من الخلف ثنية بقدر اصبعين. وافقتْ هامّة بفتح الخياطة لتعديل القميص كما أرادته (مريم) التي ارتدته، مرة ثانية، فلم يعجبها أيضا. نطّت، كقردة، تجهر بصوت عال: ألم أقل لك إنه واسع والثنية صغيرة؟

عادت أمي تفتح خياطة القميص لتعديله، من جديد، وبعدما ارتدته (مريم) عمّت فوضاها أكثر فأكثر، من ذي قبل، كأنّ هستيريا انتابتها ساريةً في كلّ جسدها. لقد صارت أشدَّ صخبا، هذه المرة، فتأفّفت أمي بصبر، نعم، كأنّها تحاول كتم غضبها. كانت (مريم) قد جُنّ جنونها، جاهرةً ببكاء وصياح متواصلين، فيما تمّعنت بها أمي رامقةً إيّاها بعينين تطفحان شررا طفق ينهرها بشدّة دون أن تُنتهى عن العياط.

هنا أومأت أمي لـ(مريم) أنِ اقتربي مني، تحذّرها بتحريك رأسها لآخر مرة، ثم راحت تُهدّدها بمقص كبير، تحمله يدها اليمنى، صائحة بها: سأضربك به إذا لم تهدئي! غير أنّها ما خافت، أبداً، بل ازدادت صخبا، قبالتها، فحلّق المقص الكبير، طائرا في الهواء، ومع حركتها السريعة للهرب استقرت نهايته في زند يدها اليسرى. حينها ضجّت بألم حقيقي وعويل جنوني، هذه المرة، لا أتذكّر أن أمي التفتت إليهما، صدقاً، فلم تُطبّب جرحها، لم تهتم له أصلاً، ولا انشغل بالها بما جرى.

أكاد أجزم، الآن، بأنّي أتذكّر (مريم) تركض نحو بيت جارتنا أم علاء، التي لا تعرف شيئا عن تضميد الجروح، حيث ألج البيت خلفها لأرى ما بوسع الجارة أن تصنع، لتطبيب الجرح، فإذا بها تُقعدها جوارها، تحاول أن تسكتها مهدّئة من روعها، وهي تضمّد زندها بمسحوق الكركم!

لمى

هنالك غريزة، تحملها، تُشير عليك بالابتعاد دائما، هكذا تظنّها، لكنْ قد تخونك في بعض اللحظات!

كذلك ثمة حركة بطيئة زاحفة نحوي، متربّصة بي، تضطرّني للمخاطرة، بالاقتراب من الخطر، تُلقيني في بئر ماء عكر لأُقدّم رجْلاً وأُؤخّر أُخرى!

هذه الحركة البطيئة الزاحفة، المتربّصة، ما زالت مستمرّة، للآن، فيما العين التي ظنَنْتها راصدةً تلهّتْ فغافلها شاغل التطلّع إلى المجهول!

لطالما استأنستُ برفقتي مع أبناء خالتي «وداد»، غير أنّي أتوه عنهم لألوذ بخوفي!، مُذ كنّا صغارا...

نحلم بالمال، نراه يحقق لنا أيّ شيء، نعلم تماما أنّ في كلّ عيد مكرمةً سخيّة منه لن يحظى بها إلّا المُقرّب لأقاربنا حيث بمحبّتهم له يحصل على نقود كثيرة تفيض بها جيوبه. لذلك نطرق أبوابا عديدة

متقافزين من واحد إلى آخر، كأرانب برّية، فندخل بيوت الجد والعم والخال، مهرولين نحوها كأنّنا في سباق، كي ننال عيديّات مجزية ذات فئات نقدية كبيرة. لكنّنا أحياناً نداري خيباتنا، فيما بيننا، عندما نحصل على قطع نقود معدنية، تُسمّى «خردة»، من المحال أن تكفينا سوى لبعض الوقت القصير.

نصير أغنياء في الأعياد فقط، ثلاثة على الأغلب، وإلّا يكاد كلٌّ واحد منا لا يمتلك أيّ فلس: ننظر باطراف عيوننا إلى الحلويات، خصوصا، فنشيح أنظارنا عنها مرغمين: نشاطر الحزن، فيتشظّى كشهب متساقطة في سماوات أرواحنا، متجرّعين الإحباط!

فالأعياد لنا، نحن الأغنياء بها حصراً، عيديّات نصرفها بكلّ سهولة على التمتّع باللذيذ والطيب. نرقب حلولها بملابس جديدة، لكن ليست غالية، حين نرتديها نصل إلى قمة السعادة. نتحصّل خلال أيامها على العيديّات، المجزية، التي تُغرينا بـ«اللبلبي» المرشوش بحامض الليمون و«الحلقوم» المُداف بذرات النشأ.

أمّا متعتنا الكبرى فيها فيمثّلها تأرجحنا بالأراجيح، المصنوعة بجرائد النخل وحبال القنّب، حيث نقضي عندها جلّ وقتنا. يدفعنا أصحابها بأيديهم القوية ونحن معلّقون على مقاعدها، المشدودة من أطرافها، فيلذّ لنا التحليق في الهواء. كلّما دفعونا لأعلى فأعلى، لكنْ بحرص علينا، سحبنا أنفاسا بأبصار زائغة!

أنا مثلاً، كما أتذكّر، ما أن يتأهّب صاحب الأرجوحة لدفعها إلى الأعلى، قبل طيرانها، يستبدّ بي خوف ترتعد له فرائصي. أمّا حين يدفعها فعلاً، بيده اليمنى من طرفها الأيسر، فيصيبني رعب يُسقط قلبي بين ضلوعي. لكنّني أغامر أمامه متأرجحة، مرّات و مرّات، لئلّا ينعتني بالجبن.

هكذا ضجّت أوصالي برهاب مبكر من الارتفاعات، نعم حدّ الـ»فوبيا»، منذ الأرجوحة حتى الطائرة.

لكنْ كان عليّ، عاجلا ليس آجلا، أن أكسر سلّم ذلك الرهاب المبكر، الذي عانيت منه طويلا، بأن أصير جريئة في بيتنا، حيث أمي بلا أبي، أُردّد مقولة سمعتها من جدي ما زال صداها في رأسي: الدنيا قرار يجب اتّخاذه بشجاعة!

كانت أمي تُهيّئ مستلزمات أيّ عيد قبل يوم، واحد على الأقل، ظنّاً منها بأنّها ستُفرحنا. حقّاً كنّا نَفرح أيّاماً، أربعة على الأكثر، ثم نعاود حياة زجّتنا بين أتونها دون وعي منها. لقد ندمت أخيرا، ساعة لا ينفع فيها ندم، إذ لطالما صرّحت قبالتنا بأنّ سوء اختيارها للزوج قد أصابنا بالعوز والقهر.

ليلة العيد، كلِّ عيد، تتضوَّع في بيتنا روائح طيبة مختلطة مع بعضها، تمتليء بها أجواؤه، فيطيب لنا استنشاق عبق الحنّة. تتضّمخ

بنقوشها أصابع أيدينا الرشيقة أنا و»مريم» وأختنا الصغرى «الدكمة»، كما وصفها أبي، وهي (لمى). تختلف عنا شكليّاً، حقّاً، ببشرة مغايرة وشفتين غامقتين فضلاً عن وجه ذي ملامح دقيقة. كأنها مجرّد لعبة، خاملة مستكينة، ليس لها أيّ صوت، بتاتاً، لا تخالط أيّة واحدة منا. حتى أنني أكاد أنسى، بعض المرات، أنّ لي أختا أخرى غير «مريم» المشاكسة. لذلك أحاول أن أُنشّط ذاكرتي لأتذكّر اسمها، نعم!، مردّدة مع نفسي: أهو (لمى)؟!

هل يُعقل أن تنسى أختٌ أختها، يا إلهي، كما يحصل معي!؟

سعاد

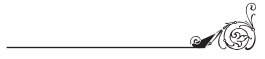

صباحاً نتأمل نقوش الحنة على أصابعنا، بعدما نغسل ما جفّ منها خلال الليل، منبهرين بلونها الأجمل الأحلى: البرتقالي. ذاك طقس، بالرغم من بساطته، كان يجعل أيامنا أروع. هنا، إلى الآن، أعني البنات الثلاث: أسماء/ مريم/ لمى، معاً، لكنْ، بعد ذلك، ماذا عنّي أنا فقط؟

منذ طفولتي البريئة، العذبة، حيث:

ذات فجر، حين صحوت ـ سهواً؟! ـ من نومي، وجدت أصابع يديّ تلتف عليها خرق بيض مندّاة بصبغة برتقالية. لم أعتد من أمي (سعاد) أن تقوم بصنيع كهذا معي، حتى حين أكون نائمة، لكنّني وجدتها مؤخرا تهتم بهذا الطقس. صارت لا تفوّت مناسبة، معنيّة به، إلّا واقتنت الحنة مخضّبة بها أصابعي.

حتى مراهقتي الجريئة، المعذّبة، حيث:

مرّاتٍ أصحو عليها تقبّل يديّ، كلتيهما، متمتمة: لا شيء يهمني، البتّة، تلك الروح و ذلك الجسد أهملتهما كأنهما لشخص آخر، لا يمت لي بصلة، يا ربّي.. كيف أكفّر عن ذنب لم أرتكبه؟! ذات مرّةً، من تلكم المرات، بالكاد فتحت عينيّ، إذ لا تزال بقايا نعاس بين أجفانهما، وباستغراب نطقت عبارات كأنما لُقّنتها في حلمي: لِماذا كلُّ هذا التمسك بتقبيل يديّ، يا أمّاه، بينما عرفتك قبْلاً لا تعبئين بأمر كهذا؟!

نظرتْ لي بعينين طفحت فيهما دموع، مدرارةٌ بكثرة، صامتةً، كمنْ تسترجع أفكارا!، ثم نطقتْ، بغتةً؟، لكنّها بدت، على الرغم من توجّهها إليّ، كأنّها تهمس لنفسها بصوت غلبته مرارة لاذعة:

كنتِ طفلة، بعمر ثلاث سنوات، تلعبين مع أولاد خالتك «وداد»، في بيتها، حيث يقال لي إنّك تتنطّطين فرحة برفقتهم. دائما أتركك معهم، لوحدك، مطمئنة نفسي بأنك ما دمت داخل بيت الخالة لن يُصيبك سوء. لم أشأ إهمالك آنذاك، لا .. أبداً، لكنّه القدر: بعوزه وقهره!

كان أبوك نجّارا بسيطاً، أقصد عاملا بالأجرة في ورشة للنجارة، فكان عليّ أن أساعده في معيشتنا: هو وأنا وأنت وأختك الأصغر منك «مريم»، قبل أن ألد أختكما الصغرى «لمى»، لذلك اشتغلت عند عائلة ميسورة، أُدبّر منزلها، منذ الصباح المبكّر حتى المساء المتأخّر، أيْ قرابة اثنتي عشرة ساعة يوميّاً، ما اضطرّني إلى اللجوء لخالتك أتركك معها عند ذهابي ثم آخذك منها بعد إيابي.

عندما كبرتِ سنتين، قبل دخولك الصف الأول الابتدائي، صرتِ تلعبين خارج بيت خالتك مع أول أولادها «غانم»، أكبر منك عمراً بسنوات أربع تقريبا، حيث يهرع ذات نهار إليّ، في بيت العائلة الميسورة، ليخبرني بما حدث لك: خالة.. شوكة سعفة استقرّت في رقبة «أسماء»، خائفاً من أمّه، فأنطلق معه إليك، دون استئذان من سيدة البيت، لآخذك إلى أقرب مضمّد استلّ الشوكة من رقبتك طالياً أثرها بمرهم يخصُّ الجلد.

يومذاك، ليس بعده، فقدتُ شغلي تماماً!

لم أبتئس كثيرا، لا، إذ كنتُ حبلى بأختك الصغرى «لمى»، أوشك على ولادتها، فصار علي أن أبقى داخل بيتنا لأرعاها، فضلاً عن رعايتي لك ولأختك الأصغر منك «مريم»، لذلك اشتريت ماكنة أخيط بها ملابس لنساء الحيّ وأطفالهن.

ذات ظهيرة، بينما أنا منشغلة بإحداهن مع أطفالها، لا أدري لماذا حشرتِ أصابع يدك اليمنى في فتحة باب، لغرفة الجلوس، صادف أن أباك قد أغلقه بقوة، دون أن ينتبه لما قمتِ به، فانغلقت الفتحة على أصابعك، بالقوة ذاتها، لذا صرختِ مرعوبة، من شدّة الألم، حيث صُدم أبوك بمنظرك هذا، حتى أنه لم يعد يعرف ما يصنع، فنادى عليّ مرتبكاً: سعاد.. تعالي بسرعة.. أسماء في خطر. فوراً هرعت إليك، تاركة المرأة و الأطفال، فصدمني أيضا منظرك: يا ربّي دخيلك، إذ

كانت أصابعك الأربع – باستثناء الابهام – دون جلد و لحم، فقط عظم، فيما صعقني مرأى الدم النازف منها تحت الباب، والذي أبى أن يتوقف، فظللت واجمة، يعتريني ارتباك كبير، كأن أحدهم ضربني على رأسي بمطرقة حديدية. أخرج أبوك منديله من جيب دشداشته، التي تلطّخت بدمك، فلفّ به يدك، كلّها، ثم هرول بك إلى الشارع وأنا أتبعه، كمجنونة، حيث اكترينا سيارة انطلقت بنا إلى أقرب مستشفى، في مدينتنا، لتدخلي صالة عملياتها فيتمكّن أحد جرّاحيها الأكفاء من إعادة أصابعك لأماكنها. بمرور الأيام شُفيتِ، مما أصابك، لكن ظلّت الأصابع مشوّهة، لا تتحرك، فنذرت لله ألّا يمرّ عيد إلّا خضّبتها خلاله، حمداً له على نجاتك، أمّا أبوك فقرّر أن يُكفّر عما فعله بأصابعك، بعدما اكتشف استهزاء أقرانك بيدك المشوّهة، فصار يأمرني دائما أن أضع الطعام أمامك قبله، أيْ قبلنا كلّنا، وهكذا دلّلك صغيرةً غير عارف بأنّك ستتمرّدين عليه حين تكبرين!

إسماعيل

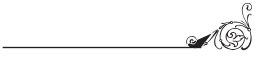

في حواسّك خارطة، ذات جهات أربع، بينما في رأسي رائحة، كثورة من لهب، فأيُّنا يغدو ذئب اللحظة؟!

أجفل في غمرة الحزن، مذعنة، فينبري ما يُنهكني من لوم، على مضيّ الأيام، لأدوّن إيماءةَ تآكل، مجروحة، لا تلتقطُ جأشي إلا وحواسّي مستعرة، محتدمة مضطرمة، تتمطّى متسلّلة إليّ، كثعبان في نفسي، زامّة الثواني بتنفّسي.

لم يطلق عليّ أحد أيّة كلمة نابية، طيلة حياتي النائية عن البذاءة، إلا مرة واحدة! وقتها تخاصمت مع صبي، يكبرني بسنتين، هو (اسماعيل) الابن الأصغر لجارتنا أم علاء. عاندته بأن أكون محور اللعب مع الصغار، في زقاقنا، لكنّه أبى إلّا أن يكون المشرف المتحكّم بكلّ تحركاتهم، حيث رفض مشاركة أيّ أحد منّا، فارضاً سيطرته على كل شيء.

كانت لعبة بسيطة: عظمٌ لأيّ حيوان يُؤكل، ديك على الأغلب، يُخبّئه أحدنا في حائط، من حيطان الزقاق، فنقوم بالبحث عنه. كان يُعيقني عن ممارسة هذه اللعبة البسيطة نعالي «البلاستك»، اللدن، حيث فردتاه كبيرتان بينما قدماي صغيرتان! كنت مواظبة على ارتداء بلوزة كبيرة واسعة فوق بنطلون كبير واسع، فيما شعري معقوف كذيل الحصان، فأبدو مضحكة للصغار ساعة الركض أو الجري.

((أَكُلُّ ملبس أرتديه، يا أمي، يجب أن يكون كبيرا واسعا؟! لكي أبقى عدة سنوات بالملبس ذاته، كما تريد مشيئتك دائما، فلا أستطيع أن أقتني غيره! حتى أنني بتُّ لا أعلم متى تغسلين ملبسا لي، مما تغسلينه من ملابس لنا كلّنا، لأعاود ارتداءه مرة أخرى.))

هرولت باكية شاكية لأمي، ليست عندي سواها، ثم قرّرت أن أنام واضعة وسادتي فوق رأسي! لحقتني الخالة أم علاء، محاولة تطييب خاطري، فأبيت الاستجابة لطلبها بأن أعود إلى الصغار. لكنّني عدت إليهم فيما بعد، بساعات قليلة، فضحكوا عليّ، أجمعهم، مستهزئين بي من بين أضراسهم: رجعت الزعلانة.

أُغامر بالإنصات لما يقوله، متحاشية سلّم العمر بازدراء سمج، فيستعصِي ظلّاً من نسيان صاعدا بانثيال خديعة في كلّ ما مضى. يأبى إلّا أن أستعدّ حدّ الهرب، نعم، وثمة شرخ لم يُرمّم أواظب على أن أعيده في رأسي. ليجعلني أركل طيبتي، المفرطة؟!، التي لطالما

ورّطتني في ما لا يحمد عقباه. فأُرغّبه بها، كي لا يركلها، مستميتة لأجل التعلّق به.

لم أهب ثقتي لكلّ أحد، لا بسهولة و لا بصعوبة، حذرة دائما في التعامل بطيبة نفس تجاه الآخر، أو الغير، لكنّني للمرة الأولى أزيح عن كاهلي أيّ شعور بريبة وشك معه، كآخر، حيث يجمعنا حيٌّ واحد ذو عمر كامل لأهلينا معاً.

ألوم نفسي كثيرا، ساعة لا ينفع لوم، أتمتم معها خائفة من أن أصاب بلوثة حيث يراني أحدهم فيظنّ أنّ بي مسَّ جنون!

((هو التعلّق، إذاً، ذاك الذي زرعته فيّ، نعم، وقد نجحت، بحق، فها أنت تحصد زرعك بكل فخر))...

هذا ما أعترف به للآن، لا يزال يطوّقني، بعدما غدوت امرأة أخرى اليوم، غيْرها البارحة، محطّمةً، صحيح، لكن ليست تلك التي وصلت إلى حافة الموت، خلال السنة الماضية، حيث محاولتها الانتحار خواءٌ بالحياة ثم استسلامٌ للواقع، أي اليأس من كل شيء، فهبطت مقاومة جسدها، لتصل إلى الصفر، حتى كاد الجميع يتحيّن منها شهقة النهاية، عاجلة غير آجلة، لولا تدخّل أهلها...

((كان دخولك حياتي أكبر سبب في تحسّن حالتي، بعد خوائها ثم استسلامها، إذ أعطاها وجودك صدمة، «كصدمة أهالينا يوم انتهاء الحرب الثمانينيّة، الجدباء العجفاء، حين رقصوا في الشوارع؟!»،

بعدما تركت أهلك، بكلّ أشيائهم، ملتجئا إليّ، لأنّني أسماؤك أنت فقط، كي نتحاور في ما حصل آنذاك، بيني و بينك، حيث اخترنا العقل سبيلاً أو وسيلة، دون الغريزة هدفاً أو غاية، كي نتمسّك بمحبة نائية عن أيّ عناد لا يستحقّنا!))...

لقد لبس هذا الجسد من جديد علامات سعادة، بالرغم من جميع مشادّاته مع سواه، فتمسّك بالأمل ليشدّ روحه.

((هل يرضيك، بعد ذلك كلّه، أن نختلف على هفوات، ربما بدون قصد، ضمن حوار طويل محزن، سحبتني إليه، نتجت عنه مقاطعة، ظالمة مظلومة!، بعدما وصلنا شوطا من صداقة، كُلّلت بحبٍّ، بتُّ أعتبرها عظيمة لأنها تجردت من أيّ تطلّعٍ، نزوة أو شهوة، نحن أكبر منه؟))...

مللت مناجاتي، قرفت منها، فقرّرت الهجرة: هذا، إلى الآن، كلُّ ما جنيته.

كانت أمي، دائما، تردد على مسامعي: حكمتي في الحياة، عليكِ الأخذ بها، قول نبينا الكريم «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين». كذلك اعتادت، باستمرار، أن تكرّر عليّ هذا التحذير: إيّاك والثقة بالآخرين. لكأنها تهجس داخل نفسها، آنذاك، ما سينالني. نعم، والله، إذ أن ما حصل لي مؤخّرا وجه صفعة قوية لكلّ الذي علّمتني إياه.

يقال عن الحياة، التي هي مدرسة كبيرة، إن من يأتمنها تخونه بسهولة ومكر!

هكذا بدأت معه قصتي، المسكينة!، التي ختمها بمكره.

فما هذا الذي للآن يفور مؤجّجا لهيبه بجسدي وروحي، ضاربا حقده فيهما، سوى بعض شتله.

يُعيّرني بأصابعي، المكسورة، آه يا أصابعي، المنكسرة، وقد غدوتِ نقطة ضعفي، أولا أو أخيرا!، يلج منها من يريد إغاظتي لكسر نفسي.

يتسرّب تأنيبه إيّاي إلى روحي، كأنّه قيح متراكم على جسدي، فينعتق صخب الماضي من لجامه!

لا يُبالي بكلِّ ما حوله، أبدا، ثم يُستفزّ لنسمة عابرة أو لشهقة نفس!

لم يكن يهنأ إلّا بالتحاور معي، أنا فقط، أو هكذا تخيّلت؟!

الغيرة مفصل من مفاصل الهاوية لعلاقتنا.

كان مدركا، تمام الإدراك، كيف يجعل تمثال الرخام يتعلق به!

ذات يوم، يخصّ هذا التعلق، أخبرني: عندما تحتاجين ظلّاً سأكون هذا الظل.

ذلك اليوم، بيني و بيني، ضحكت بسخرية: ما هذا الرجل الذي يوزع ظلاله؟!

لم أعرف أن هذا الظل، الذي اخترق مساماتي كلّها، سيظل طيفاً، مطلّاً كمارد، يُغلق أذنيّ عن سماع أيّ صوت للحكمة.

ثناء

تلك مطرقة الأيام، ليس لها سندان؟، تُكسّر ما تبقّى لتكشف وهم الكأس!

أغوص في أعماقي فتنبثق صور مزعجة، ما أكثرها، فارضة سطوتها على ذاكرتي. أُفكّر: أُزوّر ما هالني في تلك الحقبة من عمري، فأبدو كطائرِ القيق الأزرق ببغائيَّ النطق، أم أُصرّح بما يكتنفني؟ أُدوّن كلّ ما مرّ بي، أقضُّ من جديد مضجعي ناثرة برداً منزوياً في أوصالي، لكنْ بكلمات متنطّعة، خفيضة، تستفزّ صور ذاكرتي، الحبلى بآلام وآمال، فتجيء حكاياتها المتأخرة تُشاغب أسرارا متضمّخة باللعنة.

هكذا تخيّلتني أتسلّى بسحب القلق، إليّ!، مردّدة «لا أحد ينفّذ بغير هوى»، كثيراً، مقولةً فقدْتها إذ أفقدوني إيّاها دون أن أعلم (من هم؟)!

بترقّب لظلام سيلتّف حولي، منسلّاً إليّ أو منساباً عليّ، أُتعلّق بخطاف هلامي في زمني مبحرة، كسفينة ذات طاقة كونية، فيرصدني

جذب ذو دهاليز، بينما ظلمة روحي تُعيقني، لينعى الخوف ماكرا يمطّ أجنحته في كياني!

أعود لأفكاري، من جديد، فتأخذني إلى أولى عتبات مرحلتي الدراسية المتوسطة، بعمر اثنتي عشرة سنة، حيث رفقتي مع (ثناء) الجميلة، الشقراء الترفة، التي أسميناها في الصف «صمونة الكهرباء».

بصراحةٍ، تخصّ رفيقتي هذه، كنت أنفر من الفتيات القبيحات، أو متوسطات الجمال، تحت شعار: ألا يكفيني قبح حياتنا؟! لهذا فضّلتُ آنذاك أن أبقى دون رفيقة، أكتفي بنفسي أو بوحدتي، حتى عثرت عليها. صارت الرفيقة الوحيدة لي، أي «صنوتي»، مذ أشعرتها بأنّي مرآة لها كحيّز وجودي في عالمي!

هل تدرين بأنك على قدر كبير من الجمال؟ هذا ما يقال لي دائما بخصوصه. لكنّني أعتقد بألّا مسحة منه عندي. ربّما لهذا أبحث عنه في فتياتٍ غيري!

هكذا كانت (ثناء) أيضا، مثلي، لذلك بقينا سويّة طوال ثلاث سنوات دراسية، للمرحلة المتوسطة، ثم افترقنا، تماماً، لا أعرف (لماذا؟)! لم أرها إلا بعد بضعة أعوام، ستة تقريباً، حين قابلتها صدفة داخل «مول» قريب من منطقة سُكناي. إذ تمعّنت فيّ امرأة، تتأهّب لدفع ثمن مُشترياتها، بعينين ضيّقتهما قليلا. لم أعرها انتباهتي. كعادتي في أي ظرف كهذا، فانعطفت بجسدها نحوي

مندهشة: أسماء؟! إنتابني شيء غريب، حينها، فالصوت أعرفه لكن أجهل صاحبته، لا أتذكر أنّي التقيتها يوما، لم أعرف من تكون! عندما يئستْ، أخيرا، قررتِ البوح باسمها لاكزة خاصرتي اليمنى بكوعها الأيمن: أنا ثناء يا أسماء! ساعتئذ كانت صدمتي كبيرة، لكنّها إيجابية طبعا، بحيث عجّت صورها الماضية في رأسي. بل من شدة ابتهاجي بها، أقصد بمرآها، كدت لا أروم إغلاق شفتيّ. لكنّني رأيت فيها امرأة أخرى، ثانية، لا تمت لرفيقتي الجميلة بِصلة. فقد تغيّرت تماما، أجل، أضحت نحيفة، بشرتها غامقة، تتّشح بالسواد. حقّاً لم أتعرّف عليها، حتى حين نطقت باسمي، لولا أن نبّهني صوتها فقط! ذكّرتني بدراستنا المتوسطة، رَحلتنا الواحدة و طالبات صفّنا، ضاحكة بسخرية إزاء حيرتي: إنه الزمن، يا أسماء، سبحان من يغيّر لا يتغيّر. تركتها عند باب «المول»، تهتمّ بمشترياتها، منشغلة عنها بشراء ما رمت اقتناءه من أغراض.

((بدأت «المولات» تزداد في مدينتنا، كما في بلدنا كلّه، لكنّ الإقبال على أي واحد منها يبدو كبيرا في الأيام الأولى لافتتاحه، فحسب، بعدها تقلّ الحركة فيه، يوما إثر يوم، تذهب إليه تجدك تُطالع نفسك في مراياه المعلّقة على حيطانه!))

تجلّى أمامي، إذا لم تخنّي ذاكرتي، كيف كان خطّ (ثناء) ضعيفا، قبيحا؟!، تعاني مدرّساتنا من قراءته، في أوراقها

الامتحانية، حيث تؤنّبها كلُّ واحدة منهن، دائما، طالبة منها أن تُحسّن خطّها ولو قليلاً، بأنْ تزاول الكتابة كثيرا، ما يجعل زميلاتنا يستهزئن بها، دون أدنى شفقة عليها، فأردّهن بغضب: «خطيّة» يا لئيمات!

ساهرة

كنت بعكس «ثناء»، نوعاً ما!، إذ كان خطي قويّا، جميلا؟!، فكانت المدرسات يُكلّفنني بكتابة أسماء الطالبات في سجلّاتهن، التي تعتمدها مديرة المدرسة، فضلاً عن زخرفة هذه السجلّات، بعد تخطيطها، حيث اكتشفن شغفي بالزخرفة التي شاهدن نماذج منها منقوشة على حافّات دفاتري.

ها أنا الآن، أعني آنذاك!، أضع على سطح رَحلتي سجلَّ الستّ (ساهرة).

إنّها تلكم المدرّسة المستشاطة غيظاً و غضباً، دائمين، حيث تستفزّ أعصابنا. لم نحظ بها يوما مبتسمة، بشوشة، كوْنها دائمة الضجر. كأنّما لو تسنّى لها تمزيق ثيابها، من شدّة عصبيّتها المزمنة المستفحلة، لَما توانت عن تمزيقها! لهذا نتجنّبها، ما استطعنا لذلك سبيلا، لن نتجرّأ بسؤال عمّا استعصى علينا فهمه منها. تلوح لنا من

بعيد، تهمّ في مشيتها المتثاقلة، متكوّرة الشكل، ذات رأس و جسد دائريين، لذلك تعارفنا عليها بـ»ست دعسوقة».

في بيتنا الصغير، الذي كُنا نستأجره، ثمة غرفتان، فحسب، دون حمام و مطبخ! لهذا اتّخذنا حماما ومطبخا، معا، من إحدى الغرفتين، هاتين، وقد هبط سقفها لقدم بنائه بالقصب والجذوع التي تكسّرت من منتصفه. فكان لزاما على من يدخل الغرفة، للطبخ أو للاستحمام، أن يتطلّع ـ طوال فترة مكوثه فيها ـ نحو السقف، وعيناه تحملقان بجذوعه المتكسّرة، فقد ينهدّ في أية لحظة على رأسه.

ظلّ الاستحمام معضلتنا، جميعنا، حتى صار كلحس القطط لفرائها!

أمّا النوم، وهو أيضا معضلة لنا، فكنّا نقضي ساعاته في الحوش المفتوح صيفا، حيث الصيف رحمة للفقراء، وخلال الشتاء ننام في الغرفة الثانية، أنا و أختاي، تُحصّننا أمّنا بآيات قرآنية تواصل قراءتها فلا تتوقّف إلّا ونحن نسمع شخيرها.

الآن، أقصد آنذاك، أختي «مريم»، الأصغر مني بعام واحد فقط، في الصف السادس الابتدائي، حيث «البكالوريا» الأولى، بينما أنا في الصف الأول المتوسط. تجلس على أرضية الغرفة الثانية، التي ننام فيها، قبالة طاسة مرق تتناوله بقطع خبز. صادف أنْ تركت سجلّ الست (ساهرة) مفتوحا على آخر قائمة للأسماء، ذاهبة إلى الغرفة

الأولى كي أستحم، فإذا بها تتلف القائمة برذاذات المرق الدهنية الحمر. أنّبتها بلا تحفّظ هذه المرة على غير عادتي معها، إذ صدمني هذا التلف حدّ الصعقة!، مطلقة عليها سيل شتائم جارحة: غبية، كسولة، بليدة. لم تصعقها كلماتي.. بل ما تفاجأت بها، فلم تحرّك ساكنا، حيث ظلّت على هدوئها القاتل. جأرت بها، أضرب الأرض بقدميّ، ضاجّة: ماذا أقول لمدرّستي، التي وثقت بي، بعدما أتلفتِ سجلّها؟ خنستْ، لم تنطق حتى بحرف، فيما استرددْت هدوئي، سيطرت على نفسي، منتزعة قائمة الأسماء، حذرة، لأبدلها بقائمة جديدة.

اليوم، لست أقصد يومذاك!، يدور في رأسي سؤال يُحيّرني: هل ترسّبت شتائمي الجارحة في أعماق «مريم» فردّتها لي لاحقاً بفعلٍ غيّر موازين حياتي قالباً إيّاها رأسا على عقب؟!

لبنى

أرى واقعي يتهشّم.

أعترف بأنّي أخطّط لكل شيء، نعم، لكنْ مثل سلحفاة بطيئة الحركة!

أسير على خطوط وهمية كالطول والعرض للكرة الأرضية!

أتسامق دائما، غاضّة الطرف عن حقيقة ماثلة شاخصة أمام ناظري، غير أنّي أنطلق بسباق مع أرنب الواقع، ألمح خطّاً يفصل بين أن أجرجر قدميّ على رماله أو أن أصل بهما إلى ضفة الحلم للغوص في بحره!

يشغلني هاجسٌ، عتيد!، كأنه يكرر لازمته في أذنيّ: لم نكن إلّا أثيرا، بُثّ من ماكنة الزمن، فأنّى لنا أن نبتعد عن أمكنة صار قدرنا الهبوط إليها؟

لم تخنّي الذاكرة، إذاً، أو هذا ما حسبته، بعدما مرّت سنوات طوال، كأنّي قسمت نصفين أو شقّتني الحياة شقّين.

في مدرستنا المتوسطة، التي احتضنت مراهَقاتنا، ثمة منافسة على أشدّها بيننا نحن الصديقات: أسماء، إيمان، بشرى، ثناء.

أحببنا جميعنا – نحن الأربع – مُدرسة الفنية، الست (لبنى)، التي جاءت إلى متوسطتنا نقلاً من محافظة البصرة.

لأول وهلة لفت انتباهنا ضعف جسدها، لكن بدون تشوه، متناسباً مع وجه طفولي ذي ملامح ناعمة.

صيفاً ترتدي تنورة قصيرة و قميصا واسعا، بنصف ردن، فيما تسدل شعرها – المائل إلى اللون الكستنائي – على كِلتا كتفيها.

في حصة السبت، من كلّ أسبوع، تطلب منا أن نخرج من حقائبنا ما أنجزناه خلال عطلة الجمعة من أعمال مهاريّة، علّمتنا إياها في حصة الخميس، خصوصا التطريز، في الدرجة الأولى، لتتأكد من أنّنا أتقنّا حساب الغرزات الكافية و اختيار الخيوط المناسبة.

نقضي جلّ وقتنا معها في التطريز، بوصفه فنّاً جميلا، حيث نشتري مجلات خاصة به ذات صور لـورود وغـزلان وأرانب وعصافير وطيور مغردة على أغصان وفلاحات فوق رؤوسهن جِرار...

كان انبهارنا يزداد بتدريبنا المتواصل منها، طيلة أيام الأسبوع، إذ يُظهر أعمالنا المهاريّة ذات أشكال أخّاذة، جلية بارزة، فتنتابنا الدهشة هامسين لأنفسنا: كيف تسنّى لنا أن نتعلّم هذا الفن الجميل؟!

كذلك بثّت في نفوسنا حبها للأعمال اليدوية كخياطة ملابس للأطفال بورق جرائد، نعم ورق الجرائد، فكنت أنا ـ مثلا ـ أتجرّأ بفضلها على مسك مقصّ أفصّل به دشداشة لطفل.

كانت امرأة معطاء، بحق، لم تتسرّب إلى نفسها أية أنانية مقيتة.

نزار

تُداهمني نظراتك، تريدها أن تخترق صدري، يوم قدمت لزيارتنا في بيتنا الفقير.

لم يكن يغطي جسدي غير ثوب شيفون أسود شفاف، بنقوش لخطوط ذهبية، تتراءى للعيان بطانته السوداء.

لكي أتّقي شرر عينين تومضان، متطلّعتين نحوي، تصبّبت عرقا فيما سايرت كلماتك، حائرة، حيث مضيت أطوي ما ترسّب داخلي ثم أنسلّ متجاوزة حيرتي، رغم أنّي كنت أغرق خجلا، فانعطفتَ ترقب ما بدر مني متجرّعا مرارات تحفّظي معك. لكنّك أبدا لن تُبَلسمني بموتاتك الثعلبية، الماكرة، التي لطالما افتعلتها كلّما حاصرتك أسئلتي، دون أجوبة منك، فلا يعنيك بي غير طوق رميته في نهر روحي، مختارا صفات جبن ظاهرة، ثم فرزْت متخاذلا مرعوبا مستسلما. تهزمني بمنطقك المخاتل، المراوغ، حين تلقي عليّ خطبة عصماء!، كأنّك خطيب يعتلي منبرا، تحتاط من خلالها

لئلّا تنكشف أمام عينيّ حقيقة خداعك. في كل يوم أراك متبدّلا، ذا شخصية إشكالية، تردد على مسامعي قدّيستي الإشكالية: من غرق في إشكاليته، يريد أو لا يريد، إنّما يرائي الناس بعصمته. كنّا عند بداية العمر، يااااه، فأضيعُني في طريقة التعامل معك، !!!، إذ من غير سبب تعكّر حياتي فتنسحب بمكر، ظنّا منك أنك ستفرض سيطرتك على روحي، تعلّقني بك ثم تختفي. تدرك أن هنالك كلمات تستفزّني، حدّ القرف من نفسي، لكنك تواصل ترديدها قبالتي، تروم بها كتمي أو إنهاكي، خصوصا كلمتك الأثيرة: جبانة! مستغرقاً تترصّد كلّ ما يصدر عني، لتوجّهه نحوي سكّين ريبة أو خنجر شكٍّ، فأُؤثر ألّا نتصادم، إذ أراك مُنهك القوى كأنك شيخ ذو عمر عتيّ، مع أن قربك من محيطي العائلي يهدمني!

لم أعد أعرف جوابا لتلك الـ«لماذا؟»، الكبيرة، التي تردّد صداها لأسئلة مدوّية في روحي!

لكنّني كنتُ أدري بأنّ كلّ ما ترنو إليه هو استعبادي، نعم، رغم أنّك كنتَ مثلي تحب الشعر قارئاً لنزار قباني ومحمود درويش!

كلُّ ما حاولت طيّه في غياهب جبٍّ، غائر مظلم، ظلّ عالقا كذرات تراب على بساط أيامي.

تعلّقنا بالكلمات، حين لم نكن قد تجاوزنا مرحلة الشباب، حيث ليس من أحد بين أهلينا يعشق القراءة و الكتابة سوانا.

تُفاجئني بحضورك البهي لبيتنا الفقير، الخرب!، ألمحك، كصقر فوق رأسي، تطالعني بعينين تتقنان المواربة لكنهما تنكشفان لي، أنا القريبة منك كتنفّسك، وبحركة مباغته تأخذ من يدي كتابي تُقلّب صفحاته، فأسمع خشخشات الورق بين يديك، وبصوت خفيض تبدأ قراءته، كأنّك تخشى أن تُكتشف!، حينها أبتسم بخجل مطالبة بإعادة الكتاب إليّ، «فوراً وإلّا»!، بعدها أردّد على مسامعك ما استساغته ذائقتي الحافظة من أشعار.

أحببت فيك خطّك الجميل، ذا الحروف الكبيرة، حيث تدوّن كلّ بضعة أيام في أحد دفاتري ما لصق في ذاكرتك.

ما الذي يشدّني لمخلوق كهذا؟!

لا يمت لأية وسامة بشيء، أبدا، إذ يبدو جسده كهيكل عظمي، يكسوه جلد مشعر بملامح غير متناسقة، ثم رأسه ذو شعر أجعد، يغطي جبهته. في وجهه تبرز عينان جاحظتان كبيرتان كعينيّ البوم!

ليس فيه أيّة مسحة من جمال، أُكرّر مُصرّة، فقط له ميزةُ أنّه مفوّه يستقطب أسماعا بصوت عذب منمّق!

تتبّعت اتّجاه عينيه، الصقريتين؟، حتى تسمّرتا على غلاف الكتاب، كتابي الذي أخذه من يدي، وبصوت شجي منساب في أعماقي قرأ عنوانه، أحبك أحبك والبقية تأتي ـ نزار قباني، لحظتها

طلب قلماً، كنت أظلّل به تحت مقاطع بعينها أحببتها دون غيرها، فراح يُدون على الصفحة الأولى مقطعَ شعرٍ هامسا: كتبته البارحة .. أريد رأيك.

آثـرتِ التعوّد/ بتمهّل مرخية سـدول قتامة/ ولم أكتفِ بإضجارك!/ ليكن، ارتشفي خيبة عام جديد/ أيتها الزغردة الندية/ كسحابة حر لفحت محياكِ/ تراجعتِ؟!/ متسائلة كسيل جارف:/ أثمة ناطور للسماء الغائمة؟!/ فيا له من قمر بعيد يُرى في مقبرة!

لم أفهم تماما ما أرادني أن أتوصل إليه، من خلال مقطعه هذا، لكنني جاريْته: لست وحدك من يكتب الشعر، يا (نزار)، فأنا أستطيع كتابة مقطع شعري، جديد، ربّما أجمل مما كتبتَ.

ضحك بصوت عال: إذاً لنرَ ما تفتّقت عنه قريحتك!

قلبت الصفحة ثم خططْت بحروف رشيقة كلماتي التي جعلتها متباعدة لأمر كتمته في نفسي.

متوّج فارسي بعيد الهالوين/ يطيش شبحا بقناع/ يخامرني بوقع ظلٍّ واهٍ/ يُغريه مني النشيج:/ ما أنا ببائع كلمات!/ يُهسهس ويمضى:/ تبيعها أم تشترِيها مني؟!/ قلتها وأسدلت ستائر شغاف تختلج:/ أببريق الأنياب تبتزّني؟/ تلهج الصفرة المخادعة!/ بصمتكَ/ ورفات تُرجيء صوتي!

بانت علامات ضجر على محياه: لا أريد لهذا القلب أن يتعب.

هل فهم تخوّفي منه؟، بمقطعي هذا، أم هي الغيرة بدأت تتسلل إلى أعماقه؟

لم أكن أحفل بمجيئه، ولا حتى تعنيني مغادرته، بل كان كلُّ ما يشغل رأسي أن أستمتع بالقراءة لأطول وقت ممكن.

فلم يعد الأمر قابلا للنقاش، إطلاقا، وهذا ما تبين لنا، له و لي، بعدما لاح أمامه ذلك الحلم، الذي بدأ يتكرر، وهو الذي لطالما شعر بتحقق ما يراه في أحلامه، كلّها، إذ تكون اليقظة جزءا مهما لتحقيقه كي يجتذب ما يتراءى قبالته: حاولت أن أكتب مفسّراً ما حلمت به.

أُقلّب أوراق الكتاب، كتابي الذي أعاده إلى يديّ، فإذا بها متجعّدة لكثرة ما كنت أفتش فيها عن مغزى كلماته طوال أيامي السابقة.

هنالك صباحات مشرقة لم تزل تطالبني بأن أعيش حياتي، كأي إنسان سويٍّ، لكن ثمة جسد خامل، تشبّع بصيحات رفض، يُشدّ إلى التحليق في سماوات شاسعة، مديدة، فيتهيّأ له أنه يرى واحات واسعة أو أشجارا تظلّل أمكنة أو غابات مكتظة بغزلان تتقافز في صحاري أفكار تأبى إلّا أن تستصرخ الواقع دون أي إنصات لصوت العقل!

يقول إن كلّ الثرثرات التي يسمعها، حوْله، لم تثنه عن أن يمتطي حلمه، دائما. هامّاً بإخبار الجميع يبثّهم شكواه من تكرار ذلك

الحلم، أن يكون له شأن كبير في يوم ما، لكنه خاف أن يظنّوه يهذي، أصابه مس من جنون، فبدأ يكرر كلماته على مسامعي كأنّه يتحدّث إلى نفسه في مرآته!

همس لي: لا يزال ذلك القوس القزحي، الذي أراه ليليّاً في سمائي، تظهر دفعة واحدة كلُّ ألوانه السبعة، الأحمر، الأخضر، الأزرق، الأصفر، البرتقالي، البنفسجي، النيلي، تشعّ بضوء فسفوري، وقد شفّ عنها الغيم، فأراني أطير بجناحين شفافين، لا يراهما أحد غيري، لأصل إليه، هناك، حيث أخترقه بأنفاسي واثباً من خلاله نحو الكون الفسيح!

على حين غفلة لوى بوزه ناحية الباب مغادرا.

بقيت في مكاني، وحدي، أجترّ عباراته المشوشة...

سامي

رقيتُني طويلا، ...، لكن لم يزل يُخيفني ما يتربص في الروح يقبع غامرا جلّ كياني بسطوته! أستذكر كلّ ما مرّ بي، فأنزوي وقد اجتاحني التذمر، مؤْثرة الألم على التريث في إظهار ما يكدّرني. أُنبَّه أن السهل خُلق للمرعى، ليس للتحليق، فكلُّ نسر يهم باصطياد فريسة غايته لذة الأكل بشهوة.

أنّى أُحلّق عاليا، دون زهو السعادة في واقعي المعاش، لكي أصطاد روحي، إذاً، ثم ما لها أضحت كأردية تبتلّ بالآلام راسمة ظلّ شبح مشوّه على مياهها الراكدة؟!

بدا لي المكان موحشا مقفرا، لا حياة تلوح منه لعينيّ، أهفو لحركة أقدام تدوس على أرضه القاحلة. ليس فيه من يستقبلني، بـ»حمداً لله على السلامة»، أبداً لا أحد. لقد انتفى كل شيء هنا، يا إلهي، فلا ضحكات مشاغبة ولا بكاءات معاندة ولا خوف من جوع أو مرض...

... ولا صياح لـ«مريم»، أسمعه في ذاكرتي، أو فرْحات بـ«لمى»، أراها في الذاكرة ذاتها، وهي تتنطّط من حضن إلى آخر.

فقط جبروت أبي بعينيه الطافحتين شررا لحظة تطلّعه إلينا، كأنهما شعلتان ناريتان، ينذرنا إن فعلنا ما يكره بعقاب شديد يتفنّن من خلاله في كيّ أيدينا بسكاكين محمّاة على نار فتغدو جلودها قطعاً من جمر تصهر قلوبنا الصغيرة التي لا طاقة لها على تحمّل أخفِّ الآلام!

تُضحكنا مناكفات الجد مع الجدة حدّ العراك بينهما بحيث تهجر فراش الزوجية تاركة إياه وحيدا، يُقلب الأوراق المصفرّة لكتبه القديمة متسلّيا بشمّ رائحتها الغريبة، فكنّا نلتف حوله نؤانسه، أغلب الأحيان، أنا وبضعة من أحفاده.

أحدهم (سامي) الابن الأصغر لعمّي «ستّار»، وهو أكبر من أبي، حيث أشعر اليوم حين أتذكّره بأنّ هنالك سؤالا ما فتئ ضاجّا في رأسي: أكنّا بشراً، بحقٍّ أو بحقيقة، تحتوينا بيوت ذات أبواب؟!

أُهمهم، كأنّي بدأت أُخرّف، بما يخصّه من مصائب:

ذات ظهيرة ذهبت إلى بيت عمّي «ستّار»، إذ أرسلتني أمي لزوجته كي نستدين منها مالاً، فرأيت على بابه الأسود كلمات بطبشور أبيض «إذا أنت سبع اطلعْ لي». ما أن دخلتُ البيت، بعدما فتحتْ لي الباب، لاحظتْ زوجة العم ارتباكي، حيث ظهر على وجهي، فيما تلقّاني

(سامي) خائفاً: تعاليْ، يا أسماء، معي. ثم جرّني من يدي اليسرى، بيده اليمنى مرتعشةً، هامسا: إِشْ، لا تُخبريها، سأتدبّر الأمر حالاً. كانت أمّه قد توجّهت للمطبخ، تُعدّ الغداء حتماً، حين غادر بيتهم، غاضباً، بينما صرت لصيقة ببابه، من الداخل، فإذا بصياحين، أسمعهما قريبين، يتناهين لأذنيّ. ميّزتُ صياحه، يصلني استنجاده بأخيه الأكبر «سامر»، فيما عرفت من الصياح الثاني صاحبه الذي هدّده.

((صبي عنيد، متصلّب، طباعه مكروهة من أقرانه، رغم عشرتهم معه، أخطرها أنه لئيم لا يلعب معهم إلّا إذا سمحوا له أن يترأّسهم)).

لم أستوعب، آنذاك، أن يستنجد (سامي) قبالة هذا العنيد، بـ«سامر»، رغم كونه لا يقل عنه عنادا، إنْ لم يفقْه في العناد، حيث هو «أبو راس اليابس»، لأنه ليس بليّن متسامح مع أيّ يسلبه حقه، كما تصفه أمه مرارا و تكرارا.

لاحقاً، بعد بضعة أيام، سيحكي لنا «سامر» ما حدث:

صادف أنْ كنت عائدا إلى بيتنا، ظاهرا في دربونتنا توّاً أمامهما، أثناء شجارهما، حيث استنجد بي (سامي) فوراً حالَما رآني، فبذلت جهدا لتفريقهما، بإبعاد أحدهما عن آخرهما، حينئذ ركض الصبي نحو بيتهم، كأنّه أنهي الشجار، لكنه توقف عند منتصف المسافة، بين البيتين، ثم حمل بيده اليمنى نصف طابوقة مطوّحا بها في الهواء

نحوي فمرت قرب رأسي، دون أن تصيبه، حينها امتعضت، مستفزّا بتلك الحركة، رحت أتلفّت يمينا و شمالا، أبحث عمّا أردّ به، فلاح لناظري شيش بناء، طوله متر تقريبا، رميته نحوه، بكلّ قوته، فضرب رأسه، شاجّاً جبينه، هنا رأيته مضرّجاً بدمه الذي جعلني أفرّ إلى بيت عمي «جبّار» مختبئا فيه.

لم تمر الحادثة بسلام، فهنالك وعيد حتماً، أهل الصبي، إلّا بعد تنازلات قدّمها لأهل الصبي عمي «ستّار» أبسطُها أنه تكفّل بعلاجه.

أكنّا بشراً، بحقٍّ أو بحقيقة، تحتوينا بيوت ذات أبواب؟!

هنادي

يعتريني هاجس: هل نحيا لنحلم أم نحلم لنحيا؟!
شاهدتني أبحث عمّا أفتقده، نعم، إذ ليس سهلا عثوري على غايتي!
إنّها الأيام تُكشّر لنا عن أنيابها!

على أولى صفحات دفاتري، المدرسية، أرسم قلوباً شتّى، ملوّنة بالأحمر، أُحدّد منها قلبين منفصلين يخترقهما سهم، يُوصف بـ»سهم الحبّ»، فتتأفّف أمي، حالَما تراها، تطالبني بإزالة هذه الرسوم، موجبة عليّ رسم ورود بدلا عنها، أنظر إليها مستغربة: إن أمّهات صديقاتي اللائي يرسمن رسوما كرسومي هذه لا يتأفّفن، أكنتُ أكذب؟، فتنهرني بحزم: قلت ارسمي ورودا.

أتقصد، بهذا النهر، أن القلوب مخادعة؟!

آنذاك صمتُّ، قبالتها، مغالب نفسي في عدم البوح بما اعتراني.

منذ ذلك اليوم، مُذْ راهقتُ، قرّرت أن أتعلّم لعبة: هذه حياة مملّة، ليست فيها أسرار لتُكشف، يعيش الجميع داخلها بخواء، كأنّ أقدامهم تتثبّت بأرض رخوة سريعة العطب، لا يظلّلهم غير سقف آيل للسقوط والزوال، عاجلاً أو آجلاً، حيث سذاجة الرضوخ لهذه الحياة المملّة، بطيبةٍ مبالَغة، ستظلّ سجيّتهم، التكوينية، التي تثير خلال تواجدي معهم مقتي الكريه لذاتي!

لكنّ تلكم اللعبة، التي سأتعلّمها، نأتْ بي عن بضعة أسماء فقط، تسعة في الأكثر، أحدها اسم (هنادي)، صديقتي الرابعة بعد: إيمان ـ بشرى ـ ثناء، حيث كنّا نُسمّر عيوننا على حركة يديها وهي تحوك حاسبةً الغرزات مع مكانيّ الكم و الرقبة.

هكذا ألفيتني أتجرأ مُطالبة أمي بأن تشتري لي كورة من الصوف، واحدة فقط، لأتعلّم الحياكة كصديقتي هذه.

رحت أشغل وقتي بالخياطة تارة أولى والحياكة تارة أخرى، على الأكثر، أو أخرج رسمة من مجلة خاصة بالتطريز، في الأقل، فأبدأ بعدّ الغرزات، لأكتشف كيف تكون، كأنّي أعاود نقشها، من جديد، مطرّزة على قطع سود رسمات جميلة، أختارها بتمعن وعناية، بعدها أنجر لها أطارا مناسبا ثم أعلّقها في غرفتنا مفتخرة بنفسي للعمل الذي أبدعته.

لم يكن يومنا مشغولا بأشياء اليوم: فلا تكنولوجيا ولا هواتف محمولة ولا محطات تلفزيونية مستمرة، تبثّ 24 ساعة، فكُنا ننام مبكّرا، كأننا دجاج، لكنْ ربّما نسهر قليلا ليلة الخميس على الجمعة، فقط، حين نُشاهد فيلم السهرة الذي يبدأ عادة بعد الساعة العاشرة، في تلفزيون الدولة، حيث أغلب الأحيان لا ننعم بمشاهدته، بعدما انتظرناه طوال ساعات النهار، إذ يصادف بثَّه بثُّ ظهورٍ مستجدٍّ للرئيس، بمناسبة أو بدونها، يأخذ الحيّز المخصّص للفيلم، الأسبوعي!، عندها نلفّ رؤوسنا حالمين بفيلم أفضل يُعرض على شاشة الحياة بدلاً من شاشة التلفزيون.

زينة

أنا و (زينة)، جارتي و صديقتي، ليس بين عمرينا سوى بضعة أيام، فقط، كما أخبرتني أمي: ولدتُكِ قبل أن تلدها أمها بأسبوع واحد.

بكلمات مقلقة، تعوّدت عليها، تهمس دائما: لذلك، يا حبيبتي «أسماء»، أنت الوحيدة التي أطلعها على أسراري.

ذات يوم، ضمْن تواصلنا، فاجأتني متفلسفة: ثمة نار تضطرم داخلي، تصهرني كلّي، مثل شعلة تأبى الانطفاء!

تساءلت، بسذاجة، حائرة: من أوقدها؟!

ردّت بمهل، كأنها تزن كلماتها، مع ضحكة عالية جيّاشة: «أووووف» منك، رغم كلّ شيء، لن تكفّي عن مزاحك!

تمنحني صوتها، تُلبسني أيّاه كرداء فضفاض، فأرفل بثقل رهيب، يوقفني، فلا أستطيع العدْو!

أحببْت طباعها، طيلة صحبتنا، إذ ظلّت هادئة محبة قليلة الكلام.

أمّا شكلها فكان مميّزاً، بحقٍّ، ذا وجه مثلث بملامح تقطيعية دقيقة، يكاد الناظر إليها لا يتذكّرها بعد مدة قصيرة، مع شعر أسود تضفره جديلتين طويلتين.

مُذ وعيت على الحياة وجدتها قربي، جارة و صديقة، لا يفصل بين بيتينا غير حائط مثقّب، من «بلوك»، صُفَّ بشكل غير منتظم، فبدا مشوّها، بنظرة له عن قرب ترى ما في البيتين معاً، من كلتا جهتيهما، حيث حركة ناسهما بتصرفاتهم، كلّها، فضلاً عن سماع أصواتهم بوضوح.

يتثاقل رأسي حين تتزاحم فيه خيالات لحياتينا، الحقيقيتين، فيهجره النوم، الذي يضحى آخر ما يفعله، بعدما حدث لها، لجارتي وصديقتي، إذ بتُّ أصحو من غفوات متقطّعة تسرق ما تراكم في جمجمتي من سكينة كروزنامة أقتطع منها أيامي يوما إثر آخر.

تتملّكني روحها متسلّلة إلى رأسي، بمكر؟!، تحلُّ فيه، كلّه، كغراب ينعق في صندوق ذاكرة! أبتسر صوتها، وجَلا، إذ أخال أنّ كلّ ما مرّ بي، كعقاب إلهي، يطالني كلّما جنح تفكيري. أحاول قطع انثيالها، عبثاً؟، فتغافلني فارضة سيطرتها على دماغي.

الهروب إلى الخلف، ليس التطلّع للأمام، كان دأبي.

أمّا الوصول لنقطة النهاية، أيّة نهاية، فغدا أُمنية بعيدة.

حاولت المقاومة كثيرا، لكن ليس لديّ ما أقاوم به!، فأصبحت تعويذتي التي لم تقني من الإحباط المتواصل.

أدفع بعصاه، نعم، وإلّا ماذا بقي عندي بعدما خسرت أناي الأخرى؟!

فلا شيء يرمم شرخا إذا أصاب الـروح، حتى دون الجسد، وبطبيعة الحال ستعيش حياتك بالمرارة نفسها.

أطل الآن على جسر، في بلدتي، حيث ثمة نهر يطالعني بمرآته الصادقة، أرتشف خفري منه، فيما أستحي من عينيها وهي تترجّاني أن أبقى ممسكة بها.

فما أبشعه من جمال، إذاً، حين يغدو مُستباحا للنار كلعنة!

تحكي بخوف: لم يكن لي نصيب من الحياة، للآن، سوى وجه بهي و جسد بض. لست نبتا شيطانيا، شقّ الأرض فظهر، لكني عندما أطالع حياتي أجدني في ملكوت آخر غير مبالية بأيّ حدث. عاشت أمي مع أبي عيشةَ ضنكٍ، ليست ضيقاً فحسب، جعلتها تفرّ إلى بيت أهلها في بلدة أخرى، هاربة من سفينة غارقة منذ البدء، بعدما حظي منها بولد وبنت تربّيا تحت كنف امرأة عجوز عمياء مقعدة.

قاطعت حكيها: أنت تعلمين، بالتأكيد، أن بيتينا متجاوران لا يفصلهما غير حائط آيل للسقوط، حيث حتى النفَس الذي نستنشقه

نحن تسمعونه أنتم، أي أنني أعرف كل هذا، الذي حكيته قبل قليل، خصوصا المرأة العجوز العمياء المقعدة، قريبة أبيك، إذ لم تكن تستطيع حتى قضاء حاجتها، لا بدّ من أحد يساعدها على ذلك، فضلاً عن سكنكم في غرفة واحدة، ضمّتكم جميعا، ليس لكم سوى حمام مكشوف، وإنْ عُلّقت على فتحته خرقة مثبتة سُمّيت مجازيّاً بابا، مع العلم أنه غير صالح للاستحمام، طبعاً، بل أُعِدّ لقضاء الحاجة فقط.

ثم سرحت عنها، من المؤكّد فجأة كالمعتاد، حين هبطت عليّ بضع صور..

يُشعرني ما ترتديه، من أسمال، بدونية بعض البشر.

كانت جديلتاها تبديان شعراتها متداخلة، في ما بينها، لذلك يرى الناظر إليها شبكة تخلبصت عصيّة على الحل!

في جوٍّ كهذا، بصورتيه هاتين، هنالك استحالة أن تنعم بطفولة تتوفّر لها لُعب، ولو قليلة، كيّ تعوّض نقص محبّة اكتنف حياتها، مذ خُلقت، فكان عليّ تعويضها عمّا فقدته بأن أصنع لها لعبا بسيطة.

أسمعه، دائماً ضجراً، يتفلسف بصوت أجشّ: ليس لأحد أن يتحمل وزر آخر، أو خطأه، فالتربة الخصبة تنتج زرعا أخضر! .. ماذا تنتج كثبان الرمل غير الشوك، أو العاقول، وما الذي أجنيه من هذين القردين؟

ثم أراه، أثناء ذلك، يُشير إليهما.. (زينة) و «زمان».

عندما أختلي بها، لاحقاً، أسألها باستياء: لماذا يزمجر أبوك عليكما؟!

تُجيبني: أتمنّى أن أكون كغيري، من البنات، أجد أُمّاً، وقْت أشاء، أبثّها آلامي و آمالي، أُخبرها بأنّي أحتاج مشورتها، فتبادرني الحضن وتبادلني الحديث.

تشكو وحدة تنهشها، كأنها خُلقت لتكون بمفردها، كلّما واجهتها معضلة، عصيّة على الحل، تلوذ إلى نفسها.

أشعر أن أيامنا، أنا و هي، تجري كسباق خيل، في مضمار، فأُهمهم بتأفّف: ما لهما فرَسانا متخلّفتان دائما عن أقرانهما؟!

أنهار

ما الذي يجعل بعض البشر يتزلّفون لبياض ناصع كي يجعلوا منه سوادا غامقا، أو رماديا كالحا، حيث ثمة صراخ مقيت، يسمعه الكون، يتحول إلى دوامة لخوف وخديعة؟!

دأبنا في غرفتنا على التجمع حول لهيب مُدخّن، دائما، إذ لطالما أوقدت أمي داخلها «البريمز»، ذا الأثافي الثلاث، لتتراقص شعلته الحمراء، المشوبة بزرقة، فنلوذ قربها ملتذين بدفء حرارتها، خلال الشتاء البارد، رغم اختناقنا برائحة النفط المنبعثة منها!

أحثّني إلى منزلق في ضفة الحقيقة، أحيانا، فيتبادر لذهني أني مصابة بحالة غريبة، تمكّنت مني، تأخذني بحين وآخر صوب نداء روحيّ!

متهكّمة على قهقهات، تتردّد داخل كياني، أجدني بلازمة واحدة: لا ريب في أن من يُطفئك، إذا استطاع ذلك، لن يعود ليصنع منك نجما مضيئا.

فلماذا أضحك الآن، حينما أستذكر أمسيَ كلّه، على مهووسة بخارطة رسمها قدر؟!

كلّما لمحت المرأة العجوز تخرج من غرفتها قمت لأَلحقها متشبّثة بطرف عباءتها، صارخة أتمرغّ في باحة البيت، فتضطر مرغمة لاصطحابي معها، أحايين قليلة جدا، حيث تلج بيوتا في زقاقنا، واحدا بعد آخر، لتحضر عزاءاتها الحسينية، ذات الطقوس الحزينة، خلال شهري «محرّم» و «صُفر» الهجريين.

كانت لنا غرفتان في بيتها، الذي ظلّت لها غرفته الثالثة، ندفع إليها مقابلهما مبلغا شهريا. إيجاراً لهما.

ذلك اليوم، الذي اصطحبتني خلاله، كان برده زمهريرا يُخشّب الجسد شالّاً أطرافه، حيث شتاء قاسٍ لسماء تنذر بتساقط أمطارها فيكفهر أفقها محوّلاً غيومها البيض إلى رمادية مائلة للسواد، بينما ظلّت تدخل بيوت الجارات، مودعة هذه أو مستقبلة تلك، فيما هنالك رعد يبرق مع ريح تزمجر يعقبهما تساقط مطر، بأولى قطراته، فتلفّني تحت عباءتها، مواصلة رحلتها، لكنْ تتبلّل خصلات شعري ثم تنقع ملابسي لتلتصق بجلدي فأحسُّ بجمر داخل جسدي كسمٍّ حارق يسري في أوردته.

تعيدني إلى البيت أسعل، شاعرة برجفة في أوصالي، فتدثّرني أمي لعلّي أتجاوز ما ألمّ بي لكن دون فائدة، فالحرارة تزداد والليل

يطول، إذ أنحلُ، شيئا فشيئا، تكاد حمّى تقتلني، هكذا ستُخبرني لاحقاً، فقد ارتفعت حرارة جسدي، يطيب لها قضمه فلا تتوانى في التلذّذ به مظهرة صوت رغبة جامحة للتعذيب غير مبالية بالتعسف الذي تنشره في حناياي، بينما أزدرد لقمة الصبر فيتصيّد ذئب قابع فيه رائحة الدم الحار.

تواصل أمي تدثيري، آملة بانخفاض درجة حرارتي، فأختنق، ينتفض جسدي كفرّوج يُذبح بسكين ثلمة، فيما هي حائرة ترقب الصباح، يشقّ عتمة الليل، فتهرول بي، حاملة إيّاي بكلتا ذراعيها، إلى بيت جارتنا المندائية الطيبة (أنهار)، زوجة «بسيم» الصائغ، كي تستلف منها نقودا، كما اعتادت عليها، فإذا بها تتوسّلها: رجاءً، يا «سعاد»، عودي لابنتيك فوراً، فـ«مريم» و«لمى» بحاجة إليك، أنا سآخذ «أسماء» إلى شارع الأطباء.

حسنة

كانت أمي قد استأجرت سكنا في بيت قديم، ذي باب لم يبق منه غير خشب متآكل كالح أجْرب، يقع ثالثا ضمن زقاق ضيّق، يُقال له «دربونة»، فيه ثلاث غرف، فقط، لنا منها اثنتان بينما تقطن ثالثتهما مالكته المرأة العجوز (حسنة).

كان البيت ذا حوش مكشوف أرضه ترابية، تماما، حيث في الصيف تبدو ذرات غبارية تعمي عيوننا ، أمّا في الشتاء فتغدو كتلاً طينية لزجة دبقة تلتصق بأقدامنا الحافية...

ننتزع منها الطين، بأيدينا، نصنع تماثيل مضحكة لرجال ونساء وحيوانات بأشكال مشوهة كأنها من قرون سحيقة في القِدم أو نُكّون مخلوقات خرافية تأبى ذائقتنا الطفولية الاعتراف بأنها لا تمت إلى أي فن بأية صلة سوى بمخلوقاتٍ قبل الحضارة وُجدت في الكهوف.

شغلتني تلكم الحياة، آنذاك، إذ ظلّت تنساب هادئة لا يزعجنا خلالها شيء غير صخب (حسنة)، من حين إلى آخر تُعكّر صفونا به، عندما يجنّ جنونها علينا فتقرّر طردنا من بيتها إنْ تأخرت أمي بدفع ما عليها من مستحقات الإيجار متذمّرة آخذة بالجعير واللطم كأنّ عزيزا عليها قد مات أو أصابها مكروه! تشرع بتحذير والديّ: «سأشمر قلاقيلكم في الدربونة»، تحديداً، فنهجم نحن الأخوات الثلاث، أنا و «مريم» و «لمى»، على غرفتها، بعدما تلجأ إليها، ضاربين بابها بوسائدنا، ضربات متزامنة، فتمزّق مساميره الناتئة أقمشتها المهترئة ناثرة ريشه في أرجاء البيت. أمّا هي، حتى بعدما تهدأ معركتنا، فتظل تنعق، مصوّتة صارخة، تستغيث بجيراننا آملة مجيئهم للبيت كي يساعدوها في إخراجنا منه، عنوةً؟!، دون أن تلقى منهم أيّ أحد يصغي لاستغاثتها.

راسهن

لقد خسر أبي عمله في تجارة الأخشاب، بصدقٍ لا أدري ((لماذا؟)) إلى لحظتي هذه!، فظلّ يراوح مكانه باحثا هنا أو هناك عن عمل آخر، ولو بأدنى فائدة، حتى صار نجّارا بسيطاً: عاملا بالأجرة في ورشة للنجارة.

ثم كانت أمّه (راسهن) قد جرّدته من البيت الذي سكنه بعدما تزوّج أمي، بضعة أشهر، إذ طالبته بتفريغه، مما فيه كلّه، لكي تبيعه فتقبض ثمنه، لوحدها، رغم أنه مالكه الحقيقي بدفع الثمن لا بعقد الشراء! عندما كبرت قليلا أخبرني بأنّه في الشارع الآخر، الذي يبعد أمتارا عن بيتنا المُستأجر، حيث اشتراه بٱسمها فطمعت به وسلبته منه بحيلة أنها المتكفّلة بجميع مصاريف زواجه. أراني إيّاه، إحدى المرات، فوجدته عاليا، ذا باب حديدي أبيض، لكنّني خمّنت أن مساحته لا تتجاوز مئة متر.

يقابله البيت الكبير لأهله، بيت الأب، وقد ضمّ بين جوانحه أخوته و أخواته.

للآن لم أتمكن من أن أُهيل تراب الحاضر على صور الماضي، خصوصا صورة (راسهن) جدّتي لأبي، لكأنّها سرب عصافير تفرّ كلّ حين من رأسي، تصفق بأجنحتها لتطير ثم تعود لتحطّ على شجرة اعتادت الإيواء عندها، فأتحوّل إلى نسمة محمّلة بعبق الأمس.

أين أمي مما يحدث معي اليوم، حين أستذكر طفولة مضنية حيث أحتفي بمرارة لحظاتها!، فيما أنا قبالة تلكم الصور الماضية؟

لم أشاهدها ترتدي ثوبا ملونا إلا في صورة يتيمة، أيْ واحدة فقط، فقد ظلّت تتّشح بالسواد طوال عمرها منذ اختفاء أبي!

سميرة

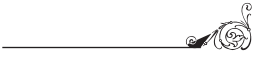

صحوت بعدما حلّق سرب طيوري لمكان قصي، فظلّ فتات طعامه و بقايا زغبه على أصابعي، مُتلبّساً ببعضي!

تجلس أمي على سرير حديدي، بمربّعات متداخلة تُظهر شبكة متقنة، تعقف شعرها الثخين للخلف مُنزلة غرراً مطويّة بشكل جميل على جانبي وجهها الدائري، ذي العينين السوداوين الواسعتين، ترتدي فستانا أبيض مورّداً بوردات حمر و صفر، ذات أوراق طاغية!، بينما تُجلِس أختي الصغرى «لمى» في حضنها مطوّقة صدرها بكلتا ذراعيها.

في ذاكرتي، حيث ليست لها صور كثيرة، لا يشغل أمي غير التفكير في كيفية إسعادنا، أن تُخرجنا مما وضعتنا فيه، فهي دائمة اللوم لنفسها خوفاً على مصائرنا، نحن بناتها الثلاث، بعدما اختفى أبي، تماما، فلم تعد تعرف أنّى تبحث عنه، أبداً، إذ تتناقض الحكايات عن اختفائه، زماناً و مكاناً، فيما تسكت الشفاه حين نتذكرّه!

لم أتقرّب كثيرا من حضنها، تركته لأختيّ الصغيرتين «مريم» و «لمى»، إذ وجدت، منذ طفولتي، صداقةً جِيرةً، في آن، مع «زينة»، التي تقاربني عمرا، فتعاضدت روحانا كأنّهما روح واحدة! ظللْنا عونا لبعضنا، مقرّبتين طيلة سنوات طفولتنا، مثلما أحببنا تشارك اللعب، دائما، حيث يشغلنا طوال ساعات النهار، بعدما أتغدّى عقب عودتي من المدرسة ظهراً، حتى ينتهي بنا للتصايح عند الغلبة و الخسارة! ((نبحث عن أزرار في ملابس قديمة، ننتزعها منها، ويا للحظّ حين أجد زرّاً كبيرا، لمعطف مثلاً، يتسنّى لي، مبتعدة عنها مسافة متر تقريبا، أن أضرب به بقية الأزرار، التي صففناها أفقيّاً واحداً بجوار آخر، لتغدو حصيلتي كيساً منها)). فتستاء أمي، حدّ الضجر أو الملل، عندما تراني منشغلة عن دراستي، بمعيّتها، لذلك تُنادي عليّ بغضب: كُفّي عن اللعب معها، يا «أسماء»، فهي لا تذهب للمدرسة فيما لديك دروس يجب أن تؤدّيها! (لم تدخل أية مدرسة، منعها والداها من الدراسة خوفاً عليها!، لهذا تراها حريصة بشكل مرَضيّ على أن نواصل دراستنا، نحن بناتها الثلاث، مهما مرّ بها من مشاق).

عندما تغادرني «زينة»، ذاهبة إلى بيتهم، أتواصل معها من خلال حائط فاصل بين بيتينا، اللذين يرتبطان به مثقّباً واطئاً، حيث ثمة ما هو متاح لأراها وتراني معاً.

ذات ظهيرة مدذْت لها من خلاله عودا أخضر، بسُمك اصبعي الخنصر، هامسة: أعطتْنيه جارتنا «جليلة»، أم علاء، ضعيه في سندانة ثم اسقِه ماء حتى يورق. فإذا بأمّها (سميرة)، قبل أن تفرّ إلى بيت أهلها في بلدة أخرى، قد وقفتْ على رأسها، فجأةً، فيما العود الأخضر بيدها اليمنى. فتطيّرتْ منه، بشدّة غريبة، حالَما شاهدته: هذا يُدعى «سلك التلفون».. يجلب الأفاعي، بيتنا قديم، فارمِه بسرعة. لكنّ ابنتها وضعته في إحدى السندانات، الأقرب إليها، ما شجّعني على أن أستحلف الأم بأن تُبقيه، علّه يُكحّل عيوننا بخضاره، فغادرتنا صامتة.

لاحقاً، بعد بضعة أسابيع، سنرى أوراقا خضرا لأغصان ممتدة من «سلك التلفون»، بخيوط رفيعة، تتسلّق الحائط ـ الفاصل بين البيتين ـ بشبكة قلبية، زاهية، تزداد طولاً يوما إثر آخر...

سالم

أنتِ مثلي، هذا مؤكّد، يُثيرك مركب الحياة فيما الموج عالٍ. هنالك حقيقة مدهشة، قبالتي، يمثّلها إعلان السنوات المنصرمة عن أنّ جميع الأسلحة التي استعملت كانت منتهية الصلاحية وأنّ صوتاً يعلو على صوت الخسارة لن يكون وأنّ الأفعى الرابضة أسفل شجرة الواقع لم تكن تلدغ إلّا نفسها!

تعوّدت أن أقضي جلّ وقتي مع «زينة»، جارتي الصديقة أو صديقتي الجارة، أزجيه بحديثها عن أبيها (سالم)، خصوصا، تشكو لي معاناتها معه مذ منعها من الدراسة متحجّجا بعدم مقدرته على شراء احتياجاتها.

خلال كل موسم دراسي، طيلة ثمانية أشهر، تنتظرني ساعة توجّهي للمدرسة يوميّاً، عند باب بيتهم، حيث ثمة نظرتان: في عينيها انكسارٌ مؤلم و في عينيّ تطلّعٌ مستقبليّ.

أحيانا أرى أباها يتهادى متمايلا، يمينا ثم يسارا، بقدمه اليمنى: القصيرة المشوهة، مرتكزا عليها بصعوبة، إذ تُعرجه في مشيته.

بتأفّف، كعادتها، تُغمغم: لاحظي مدى قباحة شكله، مجموعة عظام متحركة كأنها لم تكتسِ بلحم، أما منطقه فهو سواء مع الحيوانات، بل لأقل أنها أفضل منه، إذ أنه جلف لئيم مؤذٍ، لا ينطق سوى بكلمات نابية قبيحة، فيا لسوء أخلاقه، كما هي خلْقته، فضلاً عن جزعي من بخله معي كأنّني لست من دمه أو لحمه.

بعد لحظات ينادي على أخيه الأصغر «حاتم»، آخر أعمامها، فيظهر مُسرّحاً خصلات شعره المجعد كأنّه يحاول تعريضه للشمس كي يجفّ صبغه الأسود، بينما يضع مساحيق تجميل بكثرة فتبدو بشرته محمرة مبيضة، وهو يحرّك يديه حركات نسائية، فيما مشيته كمشية شابة مغناج، متحدّثا بنبرة مائعة خافتة مثيرة ذات صوت غادرته الرجولة فغدا أقرب لصوت امرأة.

أبوها، كما أخبرتني، لم يكن راضياً عن هذا الأخ المخنّث!

جاسمية

غالباً أسترق النظر لبيت «زينة»، جارتي و صديقتي، عبْر الحائط الفاصل بينه وبين بيتنا، إذ يرتبط البيتان به مثقّباً واطئاً، وقد غطّتني أغصان «سلك التلفون» بأوراقها الخضر، الممتدة منها بخيوط رفيعة، فلا يكاد يظهر مني شيء!

تَظهر أمامي، كلّها لهفى، فأُردّد ضاحكة: سينما بلا بطاقة.

تدعوني لأشاهد حياتها، عن كثب، تترجّاني ألّا أبتعد عنها، فليس لديها سواي، ملتصقة بي.

ظللْت أسأل: أيّنا احتاجت الأخرى أكثر؟

بصراحة، حتى الآن، لم أعرف أن أجيب!

غدت أقْرب إليّ من «مريم»، أختي الأصغر منّي، الكارهة لكل شيء.. الحاقدة على نفسها أولا و على من حولها ثانيا.. بل لأقل على الجميع.

ظهيرة كلّ يوم، بعد الأذان حتماً، كان على «زينة»، التي ترعى أخاها الأصغر منها «زمان»، أن تنظّف بدن قريبة أبيها (جاسميّة)، العجوز العمياء المقعدة، ثم تُحفّظ حوضه بقطع قماشيّة، جديدة بالضرورة، فضلاً عن تغيير شراشف فراشها.

دائماً تشكو لي من رائحة البول المقرفة التي تنتشر كغاز سام في بيتهم، جرّاء تسرّبها من الخِرق إلى الشراشف، قبل تغييرها، رغم حرصها على جوّه بالقطع القماشية، الجديدة، إذ تزيد منها، بما تتمكّن، لكن دون فائدة!

أحياناً أتربّص في مكاني، تُغطّيني الأغصان، فلا تراني حين أضبطها متلبّسة بجرم مشهود، ترتكبه ظهيرة كلّ يوم، إذ تفتح باب البيت ناظرة يمينا ثم شمالا، بضع مرّات، ليتأكّد لها خلوّ زقاقنا من أيّ مار، ولو صغير، فترشّ بسرعة بول (جاسميّة) – المجمّع في قدْر معدني – على طول عتبة الباب.

أتحاشى تأنيبها هاجسةً ما تكابده، تماماً، فرغم صغر عمرينا تحسُّ واحدتنا بما يُداخل الأخرى، كأنّنا مرآة لبعضنا، أيْ نشعر بمعاناة واحدة، ذاتيّة لا غيريّة، نعيشها في ظلّ ظروف طاردة قاهرة.

صبرية

بعض الأحيان يزداد حنقي، سخطاً و غيظاً، على الحياة بعمومها، نعم، لكن على أبي خصوصاً، أوّاااه، إذ تركنا فجأةً فلم نعلم حتى اليوم في أيّة بقعة من الأرض سنجده!

هنالك جار لنا، في الزقاق الضيّق، كان زميله في عمل بسيط بالأجرة، ضمْن ورشة للنجارة، فكانت بينهما، آنذاك، منافسة، على قدم و ساق!، ومفارقة، مضحكة؟، هي أنهما يحملان الاسم نفسه: «جبّار»!

تجلس زوجته (صبريّة) قبالة أمي، في بيتنا، تحلف أَيْمانا عظيمة بأنّ زوجها شاهد أبي في مدينة شمالية، دون أن تحدّدها، ثم التقى به، قضيا يوما كاملا معا، مشوّشة إيّاها: تغيّرت أحواله، تبدّلت، صار المال يجري بين يديه.

كذلك تؤكّد لها، كي تثير حزنها، أنّه تزوّج من امرأة أخرى فرُزق بعدّة أبناء، منها، مشيرة عبْر تحريك أصابع يديها بكل فجاجة إلى أعمارهم.

ربّما صدّقنا بعض خزعبلاتها الكاذبة في لحظات حزننا على عمّتي «جميلة»، الأخت الكبرى لأبي، ففي مجلس عزائها تجمّعت نساء المنطقة، كلّهن تقريبا، إذ اكتضّ بيتها بهن، معزّيات بناتها خاصّة، وقد عمّهن حزن مُداهن على امرأة طافحة بالحياة حريصة عليها!

طُولَ عمرها، مُذ وعت الدنيا!، كانت مهووسة بسكب مزيج الماء و «التايت» على الأرضيات في عمل متواصل، لا يُفارق يديها خلاله سطل ذو ماء و «تايت» ممزوجين، بحيث يبقى بيتها رطباً منذ الفجر حتى المساء، دائما، فاختارت ميتتها بنفسها، هكذا خُيّل لي، إذ زلقت في الحمّام إحدى قدميها، أظنّها اليسرى!، فوقعت على أرضيّته ليتهشّم عظم حوضها، يا لها من مسكينة، حيث انتظرنا كثيرا أن تُشفى، دون فائدة، فيما ظلّت طريحة الفراش، مدّة طويلة، عُلّقت لقدمها المزلوقة طابوقة بحبل كي يتسنّى لعظم الحوض أن يلتئم، شيئاً فشيئاً، لكنّ بدنها الستّيني ما استجاب لذلك.

لم نُصدّق حكاية (صبريّة)، التي تنقلها عن زوجها، بخصوص أبي، في تلكم المدينة الشمالية، ثم بمرور السنوات، إذ ما ظهر منه شيء، تأكّد لنا كذبها.

كأنّني الآن وحدي، دون أختيّ «مريم» و «لمى»، أُعاصر أمي تبادرني بسؤال متكرّر: لماذا كذبت عليّ (صبريّة) ملفّقة هذه الحكاية؟!

ربّما لغاية في نفسها، الأمّارة بالحُسْن!، مفادها أن تهدأ أمي في بحثها عن أبي....

جواد

ظللْت مصاحبة «زينة»، رغم اعتراض أمي، فلن تصاحبها واحدة غيري، إذ ملابسها القديمة تجعل كثيرات ينفرن منها، لذلك اوجبتُ على نفسي أن أبقى معها.

أحياناً، مثل قردة!، أُفلّي شعرها فتتناثر عليّ منه حشرات صغيرة سود ملتصقة بملابسي. تجعر أمي، بصوت عالٍ، حين تكتشفه: قمل؟!، كيف أتصرّف معك؟، ستقتلينني!، ألا تكفي قسوة الأيام علينا؟، أتريدين أن أموت؟ أبكي، مختضّة بشهقاتي، فيما أضع اللوم عليها مردّدة بقهر: إنها «زينة».

يبرق الشرر من عينيها محتدّة، بالصوت العالي، فأختبئ تحت لحافي، بعد ركض محموم، لكنها تزمجر، راعدة، ثم تسحبني من يديّ، ليتها تتركني!، فتُطبق بأسنانها على معصمي الأيمن، طابعة عليه ساعة بلا عقارب؟، هنا أختنق بشهيق، لا أستطيع دفع زفيره،

فأهرول نحو بقعة ماء، قرب باب البيت، أضع يدي اليمنى فيها، رغم أنها آسنة، ليهدأ ولو قليلا مكان العضّة.

حين أنظر اليوم لأسنان أمي أراها قد تساقطت جُلّها، لم يبق منها إلّا بضعٌ متفرّقة في كِلا فكّيها، حيث عند حديثها مع الأغراب تضع فوطتها على فمها خجلا من الكارثة التي حلت به.

يا لسخرية الأيام، التي قست عليها، وهي تجرّدنا بمهل من جبروتنا القوي، بعدما منحته لنا، فلا يبقى منّا بعد حين من الدهر إلا أطلال دارسة، كنفخة ريح، وإذا نحن تحت الأرض.

تواجه خالي (جواد)، أخاها الأكبر، شاكية: عباءتي احمرت «خوية»، بتُّ خجلة من لونها أمام النسوة، أريد أن أقلبها كي يتسنّى لي الخروج بها.

فيعدها خيرا، كما يصنع منذ مدة طويلة، بأن يشتري لها عباءة جديدة، مع ملابس أخرى، محاولا أن يُنسيها مشغوليّتها بعباءتها عبْر كلمات منمّقة: سأفعل ما تريدين، أصطحبك للسوق، فقط ادعِ لي أن يفرجها ألله عليّ «وبيج خير وتدلّلين».

لم تُفرَج عليه، آنذاك، بل ازداد أمرها سوءاً!

نعيمة

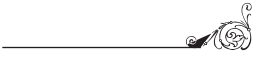

هنالك لحظات ضعف، عندنا، قلّما نتصرّف خلالها بحكمة، حتى لو ضئيلة!، بل من المؤكد أنّ للسذاجة والغباء سيطرة على كلّ موقف نتعرض له فيها، لاعتبارات شتّى، فليس بنافع مع قراراتنا الرعناء أيّ توخٍّ للحيطة والحذر بعدها، أبداً، وإلا فالندم لاحق، إثر ذلك، خصوصا أننا نعلم تماماً بأنّ ما وصلت إليه حياتنا لن يجدي نفعا!

دأبت على مطالعة كتب خارجية، بعدما أقرأ بجدٍّ كتبي المدرسية، لكنّني الآن لم أعد أتذكّر: متى تسنّت لي معرفة قيمتها؟ ثم كيف كنت أحصل عليها؟ هل أشتريها من مكتبات أهلية؟ ((أنّى لي المال لأدفع ثمنها؟)) أم أستعيرها من مكتبات حكومية؟ أو أستلفها ممّن حولي من أقارب؟

لم أكن أختلط بالآخرين، أقصد الجيران و الأقارب، ثم ليست هنالك مكتبة قريبة، من بيتنا، علاوة على أن تلك الكتب الخارجية لا يفكر بشرائها غير مثقف مطّلع له ذائقة معرفية بما يقرأ!

أطالع ورقها الأصفر الذي يقترب من التمزق، برائحته المميّزة، إذ رغم مرور سنوات طوال، أكثر من عشرين سنة.. يا للعمر.. يا لسرعة جري الأيام!، ما زالت تقبع في مكتبتي.

أقرأ عناوين بعضها: لمن تقرع الأجراس، الجريمة و العقاب، أحدب نوتردام، الأم، زوربا، البؤساء، لغز الموت، المجنون، النبي، وغيرها الكثير، حيث أحتفظ بها في أدراج سريري، بالقرب من رأسي، لأعاود إطلالتي عليها فتذكّرني بتلك الفتاة الصغيرة النهمة القراءة: «أسماء»!

أُقلّب صفحات أحدها، حين أَجلس مساءً مع وحدتي، أعني تلك المتكدّسة صفوفاً على رفوف خشبية بسيطة فضلاً عمّا فوق طاولة الكتابة و في أدراج السرير ضمن مكتبة صغيرة اتخذت لها مكانا منزويا عند ركن من غرفتي.

ذات مرّة، في المساء أيضا، بحثت عن ديوان لشاعرة اسمها (نعيمة)، ما عدت أتذكّر اسم أبيها أو لقبها، لكنّني لم أجده، لا على الرفوف ولا فوق الطاولة ولا في الأدراج، فحزنت كثيرا، إذ أدركت أنه مفقود من الغرفة، لولا أنّ هنالك ما واساني، معزّياً و مسلّياً!، وهو تذكّري عنوان الديوان: «رعشة حلم»، نعم، حيث مضامين قصائده: دهشة، شهوة، ذروة، شهقة، وأمثالها، تذكّرني بـ: غانم، إسماعيل، نزار، سامي...

سلام

هناك صور للماضي و هنا صور للحاضر، معاً!، نُبشت، منذ الأمس حتى اليوم، فزالت عنها أتربتها القديمة و الجديدة.

أُتابع صفحات من حيوات أبطال حياتي، !!!، فتثيرني إحداها، أشعرُها تتلوّى، ثم أخرى، تتحوّل لشكل حيواني، بعدها ثالثة، أخطر من سابقتيها، تتغير باستطراد، دائماً، فقد تبدو قصيرة و طويلة، أو رشيقة و ممتلئة، وقد تغدو بيضاء و سوداء، أو صفراء و حمراء، بوجوه مدوّرة و مثلّثة و مربّعة ذات أنوف و أفواه شتّى.

بدأت بتقليب الصفحات، بعدما تهيّأت لدخول مهرجان ألوان مبهجة، يُحيطني بشر في أسواق مكتظة ببضائع منوّعة، أغطية ملونة، أفرشة زاهية، لُعب ذكيّة، فساتين مطرّزة، أحذية شفّافة، فأصرخ بفرح مندهش: يا لله .. ما كلُّ هذا الجمال؟!

تتعالى نداءات الباعة، تروّج مبيعاتهم، بينما تظلّ المكبّرات الصوتية تصدح بأنغام حزينة أو تـردّد كلمات مملة، كأبواق السيارات!، فأغلق أذنيّ بكلتا يديّ. يُخّيل لي، حينئذ، أنّ وجوهاً تحدجني بعيونها، هل تتصفّحني لأتآلف معها؟!، ثم تتوّثب، تُحيطني تماماً، تزأر بي: عودي.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟! أتراجع قليلا، مهمهمةً، فيما الإضاءة التي دخلت من خلالها لهذا العالم آخذة بالتلاشي، شيئا فشيئا، يحلّ بدلا عنها ظلام كثيف، حلولاً تامّاً، وثمة أياد طويلة تكاد تطال جسدي فأخفض رأسي حاسّة بأنّ قوامي قد أخذ بالتقزم أمامها. تمتدّ نحوي أذرع اخطبوطيّة، لعلّها تحوّلُ لتلكم الكلمات المملّة!، حتى تطوّقني بفولاذيّة، حيث تدنو فتُظهر قبالتي جانبيها: المُضيء المنير مرة و المعتم المظلم أخرى، وأنا اتنهّدُ بحسرةٍ هامسةً: هل تراني، للآن، ما زلت أحتفظ بعقلي، في كامل طاقته، أم استحلت إلى مسخ؟!

تصوّرتُ أنّ رجلا اسمه (سلام)، إذ لطالما أحببْت السلام، سينحت تفاصيل جسدي، بمهل، ليجعل منه امرأة فاتنة، تُعزف بين أنامله كلازمة موسيقية، يندغم معها، بعد كره!، يزيّنها بأصداف بحرية وزهور فردوسيّة وحُليّ ذهبية، و...، داعياً نجوم السماء لتراقصها! هنا اكتظّت صالة المسرح بالمرتادين، شعبويّين و نخبويّين، بعدما حجز مقعدين لها و له، في الصف الثاني، وحين ابتدأ العرض كانوا

في شغل عنهما، جميعهم!، لكنّها بدت مضطربة، مرتبكة مهتزّة، تميل برأسها نحو فراغ، ما بين لحظة و أخرى، تسأله.. تحاوره.. تبثّه هواجسَ باتت تؤرّقها. يومها تعطّرت بعدما سوّت شعرها وقد ارتدت فستانا أبيض، أنصعَ من الثلج!، فغدت ملكةً، غير متوّجة، لكنه بدا خاويا، على عروشه!، لذلك ابتعدت متهاوية منكسرة، إلى الـ»هناك»، حيث أفصحتْ: يغمره شغفٌ لقصاصةٍ مني أبثُّ فيها أني له. ثم ابتدأ العرض، حسْب موعده، فإذا بالجميع يؤدّي دوره بمهارة إلّا هي، فقط، إذ كانت جامدة، كأنْ ليست لها طاقة لإكمال دورها، لذا طالبها أن تتحرّك، ولو قليلا، علّها تلتفت، لا بدّ من ذلك، كي تعرف منْ هو هذا اللابد خلفها! لم تميّز صوته، لكثرة الصخب حولها، لكنّها أدركتْ أنّه ظلّ وراءها، لصيقاً بها، ينصت لوقع حركاتها و سكناتها، معاً، ثم يستنشق شذى عطرها و صدى ضحكتها، بخلسة؟!، مثلما يسمع تعليقاتها على...

بتول

تطلّعت للساعة المعلّقة أعلى الجدار، أحد جدران غرفتي، فإذا بها تشير إلى الثانية فجراً.

كلُّ ما عانيت منه لم يكن ذا تأثير كبير عليّ، في نفسي، فقط التأتأة، التي تُلعثم كلامي، مُذ ابتليت بها في صغري فظلّت رواسبها تلاحقني حتى الآن.

لم أكن أنطق أيّة كلمة إلّا بمشقة، محوّلة لفظها مقاطع متباعدة، إذ تظهر الحروف بين شفتيّ متزلزلة، مهتزّة، أستخرجها بموت مضاعف من الخجل، مع الخوف، فتبدو مقرفة لي بينما تغدو مضحكة لمن يسمعها.

في الـدرس، على السبورة، تطالبني معلمتي الستّ (بتول) بالقراءة، أيّة قراءة؟!، فيما أجرُّ أيّ حرف بمشقّة، أعتّه في فمي، كأنّي أكاد أختنق بلقمة تقف في بلعومي، فيخرج ممطوطا مشوّها مترجرجا، كأنّما أنطقه بلغة أخرى تقرب للغة الحيوان، وحين يظهر

جليّا بين شفتيّ أمدّه أأأأأأأأأأأ فتقهقه تلميذات صفّي للصوت الناشز الذي تصدمهنّ به حنجرتي. أقف عند الجدار الرئيسي للصف، لائذة بصمتي، فيباغتني تقيؤ، عنيفاً!، حينه أقرّب رأسي من سلة المهملات لأفرغ فيها هواء يملأ جوفي حيث لا شيء غير خيط لعاب مصاحب لقرفي من المعلمة والحرف والتلميذات والصفّ واللغة فضلاً عن الحياة بل الدنيا أجمعها. تزفّني زميلاتي إلى بيت أهلي خلال الفرصة الأولى ليومي المدرسي ذاك، الذي علقت به، عروساً مُلطّخة الزي بقيء مخاطي أصفر.

ظلّت التأتأة، التي تُلعثم كلامي، تصاحبني، منذ الصبا حتى النضوج، فما زالت آثارها تظهر في كلماتي، إنِ ارتبكت أو خفت، فيحلُّ فيّ بسببها خجلٌ، كأنّه خوف؟!، يجعلني أحيانا أعتزل الناس، كلّهم، حيث أقبع في بيتي مكتفية بنفسي فقط.

غيدان

ثمة صبايا، يتناهى لي الآن صخبهن، أرى تجاعيد أفكارهن ترتسم على خطوط حياتهن، قابعات تحت سلطة الآخر، بينما كنت، بمهلٍ، أُفتّت صخور الوهم، وإنْ بدا مظلّة!، لأغوص محمّلة بكنز من زخّات رؤى تستشرف مستقبلا زاهيا فاخرا.

تبادر لسمعي مواء قطة، فيما يشتغل رأسي بأفكار!، فلمْ أعره اهتمامي أول الأمر، ربّما في الشارع، لكنّه تحوّل لِما يشبه نحيباً، إنسانيّاً، اضطرّني للبحث عن القطة، صاحبته، فوجدتها تلعق جراحها، بعد جهد جهيد، لذلك طبّبتها ثم وضعت لها صحن حليب فانقطع مواؤها!

يا إلهي، غفرانك، كيف لم أُعامل «زينة» كالقطة هذه، آنذاك هناك، حيث تركتها لمصير مشؤوم؟!

ذات يوم، من أيام المراهقة، أفصحت لها عمّا يخالجني: عمّك هذا، المسافر دائما، كم هو جميل نظيف مرتّب.

ضحكتْ، بكركرات عالية، ثم تفضّلت بكلمة: انصتي.

سمعتُ بلبلا يُغرّد، على مقربة منّا، فإذا بها تهمس: منه، هديّة لي، فاجأني به البارحة.

أحببْنا البلبل المغرّد الذي اقتناه عمّها الشاب، ذو الوجه الرشيق مع الجسد الممشوق، هذا الذي اسمه غريب على سمعي: (غيدان)، كأنّه اسمٌ لا ينتمي لأبيها «سالم» وعمّها «حاتم»!، والذي ألمحه كلّ شهر داخل بيتهم، بـ»فانلّة» و»شورت»، فأستحضر نجوم التمثيل في تلفزيوننا الـ»أسود أبيض» حيث نتحلّق أمامه عند الظهيرة ثم العصر حتى الليل.

بتُّ كلّ صباح أصحو معه، منتشية بسماع صوته العذب، فيُسعدني باثّاً قبالتي إشراقة بسيطة للحياة!

طير

ليكن يومنا، بما نعيش خلاله، غايتنا في الوقت الراهن، الآن، أمّا الغيب فلا يعلمه إلّا الله.

ها أنا ذي اليوم كسحابة تطير، لا تعرف متى تتلاشى من هذا الوجود وأين تحط حملها في بحثها عن الذات، حيث الأفكار ما زالت تمر على رأسي كطيور محلقة في سماء غريبة!

مع «زينة» حلمت بحياة مرفّهة سعيدة، كثيراً، لكنْ: أيُّ ضوء سينبثق من فانوس الفقر ليُظهر وجهينا حلوين مشرقين؟!

عبْر ثقوب الحائط الفاصل بين بيتنا، إذ يرتبطان به واطئاً، رأيت قطع أثاث تدخل بيتهم فاستبشرت خيرا.

لمحتها تتقافز كقردة، في حوش البيت، فناديت عليها مستفسرة: ما الأمر؟

حين انتبهت لصوتي، فوراً، جاءت تعدو: ها؟! ما تريدين؟ لم تحن الظهيرة بعد!

تساءلت بريبة: لمن الأثاث؟!

تجاوبت بضجر: لعائلة ستقطن في الغرفة الفارغة.. أجّرها أبي إذ فرغت جيوبه.

ثم علمت من أمي وهي مرتابة، خلال اليوم ذاته، أن هذه العائلة مكوّنة من أخوين أعزبين: رجل خمسيني اسمه (طبر) و امرأة أربعينية كُنيتها «أم غائب»!

كان ارتيابها محقّاً، بالفعل، حيث لم تمر بضعة أيام، أقلّ من أسبوع، حتى فاجأتني «زينة»: عمّي «غيدان» طردهما!

هنالك، عن هذه المفاجأة، ما هو ((بعد اللتيّا و الّتي)):

حالَما شاهدها للمرة الأولى، تتقافز كقردة، ضرب رأسه بكلتا يديه: جمال يُخفيه فقر! هكذا انساقت غريزته إلى كيفية الحصول عليها، حدّ الاستحواذ، فاستطابت له مشاغلتها. لقد صهره ضياع قوّى شكيمته، الشديدة أصلاً، فراح بمكر شيخ يشاغب جمالها. نعمْ حاول أن يحوزه، توّاً، بعدما انتظرها محشوراً بين أنقاض سنينه الجوعى! فما تناسى مواءه بأمل أصفر، زمناً طويلاً، يأمره أن ينشب عينيه في أنوثتها. حين اشرأبّ نظره لجسدها، غير عارفة بأنه يبغيه، كان متّفقاً مع أخته في التدبير: طفلة سأربّيها على يديّ، أوجّهها لما نريد منها، فاطمئنْ لن تعصيني أمراً. فجأةً أيقظه العمّ من حلمه، هذا، إذ رصده يروم استدراج بنت الأخ إلى الرذيلة.

لم تكن للساعات أهمّية لكلينا: أنا و «زينة»، فكانت تجري كحصان في سباق خاسر، لذلك وجدنا خيراً لنا القضاء على سأمها، ثوانيَ و دقائقَ، بأن نستمع لثرثرة مَن حولنا، ممّن كانت تشغلهم التفاهات فقط، فإذا بهذا الـ(طبر) يفوّت علينا حتى فرصة الاستماع هذه!

جمال

هكذا هي الحياة: كسيحة!، نعم، فما الذي نتوقّعه منها؟

الآن، عن كساحتها، هنا «بيت القصيد»:

تُشيرين عليّ، دائماً، أن أخرج عن صمتي، يااااه، أن أحكي للناس حكايتك مع (جمال)..

لم تكوني راغبة بالزواج منه:

يكبرني بأربعين سنة، لا يُميّز شكله الرجولي سوى خشونة ظاهرة، وجهه ذو تقاطيع غير محبّبة، فقد حاسة السمع منذ أمد بعيد، ثم أنّه قصير القامة!

كانت عيناه قد تأثّرتا برمال الجبهات، يا لطولها آنذاك، لذلك كان مخزون المعرفة لديه فارغاً إلا من قصص الحرب، عن تلكم الرمال!، وما عداها صفر!

فكيف أجاري رجلاً بهذا العمر و بهذه العقلية، حيث تأباهما حتى طفولتي، لكي يكون – من ثمّ – زوجاً لي؟!

لقد شعرت بمقت تجاهه منذ أول يوم سكن خلاله في البيت المقابل لبيتنا، مباشرة، إذ بدت نظراته نحوي غير طبيعية، كذلك حركاته!، ثم تمادى في تصرّفاته الصبيانيّة معي، فكرهته، بحيث غدا أمامي مراهقاً غرّاً، بعقلية طفلٍ جاهلٍ، مع أنه رجلٌ ناضجٌ!

لا أريده، لا أريد الزواج منه، ألا يفهمني أحد ممن حولي، في بيتنا و زقاقنا و محلّتنا و...، أم أن فتافيت نقوده قد أعمت أبصارهم و بصائرهم؟!

نعم.. أعلمتِني بأنّك رفضتِه، يا صديقتي، بل أخبرتِ الجميع بهذا الرفض، الذي كان محقّاً، ثم بكيتِ بشدة، دمعاً كدم، بعدما استعنتِ بهم، فيما أغراهم ببيته الجديد، لكنّهم خذلولك، كدأبهم معك دائما، فظللْتِ مثقلة بالخيبة.

أيضا.. أشعرتِني برغبتك للعصيان والتمرد، في كلّ وقت، حيث أخافهما عليك، لأنّك أنا، فقد يأخذانك لعوالم قاهرة، غالبة، فقط الله يعلم إنْ كنت ((ستنجين منها أم لا؟!))...

يختض جسدها، لا علْم لي بروحها!، فتتحرّك شرائط فستانها الأصفر، ثوباً قصيراً جديداً، إذ ازدان بها، يا ألله، فأراها لأول مرة بهذا الجمال!

كأنّها مخاض ولادة متعسّرة، نعم، أعلمُ ألّا بدّ خلاله من ألم بمشرط جراح ماهر لخلق حياة جديدة رغم قسوته، تماما، فليست

عنده شفقة على من تحت يديه، أبداً، إذ يَضع طبقات البطن ثم الرحم فيرى دماً متدفّقاً لكنه يواصل بالمشرط إخراج هذه الحياة الجديدة للعلن.

لكنّك ابتلعت طعمه، يا صديقتي، حيث ملابسك تشي بذلك!

بحرقةٍ، غيرَ مقتنعة باستدراكي، حسمتْ: لن يكون لهم ما أرادوا.

هكذا أشهرت سلاح الممانعة بوجوه الجميع، في بيتها و زقاقها و محلّتها و...، إذ أظهرت وجهها الآخر بشراسةٍ، كمخالب وحش! إلّا أنّهم لم يفكّروا قليلا أو كثيرا بالتراجع.

أمّا هو، هذا الـ(جمال)، فتبيّن أنّه ليس جمالاً، لم يكن اسما على مسمّى، حيث رغم رفضها له و تمنّعها عنه، أمام الملأ!، ظلّ يروم الحصول عليها...

عدنان

أستعيد لحظات السعادة، التي مرّت عليّ، فأجدها بالكاد قليلة!

منها، بحسب ذاكرتي التعبى؟، ما عشتها في بيت خالتي «وداد».

حدّثتني أمي: كنتِ طفلة ذات بضع سنوات، من ثلاث إلى خمس، حينما اشتغلتُ عند عائلة ميسورة، أُدبّر منزلها، منذ الصباح المبكّر حتى المساء المتأخّر، أيْ قرابة اثنتي عشرة ساعة يوميّاً، ما اضطرّني إلى اللجوء لخالتك «وداد» أتركك معها حين ذهابي ثم آخذك منها بعد إيابي.

كان بيت الخالة هذه متنفّسي الوحيد، رغم صغره، مُذ جذبت انتباهي سجاجيده المعلّقة على جدرانه، دقّاً بمسامير، خصوصاً تلكم السجّادة التي تُحاكي «ألف ليلة وليلة»، ((راقصات مُرتديات أزياء شفّافة، بألوان زاهية، تُظهر للعيان تقاطيع أجسادهن، ذات الأطراف الرشيقة، بالقرب منهنّ قردان: كبير ينقر على طبل و صغير

يضرب في دف))، حيث أُحلّق معها بنظر متسمّر على تشخيصها الذي يغريني بسفر حقيقي إلى عالمٍ خيالي!

أنسلخ عن واقعي، يشطح فكري بعيدا جدّاً، فأتساءل بسماجة قبالة خالتي «وداد»: لماذا لا تُعلّق أمي سجاجيد كهذه على جدران غرفتنا؟!

(تبقى جدرانها كالحة، بعدما انقشطت عنها ألوانها، منتفخة بفعل الرطوبة لقدم بنائها).

تضع الخالة يدها اليمنى على رأسي، ممسّدة شعره تسوّي خصلاته المبعثرة، ثم تجيبني – كأنّها تنقش أصلب الكلمات في حجر الزمن – بصوت حنون: سيعطيك المستقبل أجمل البيوت وأحلاها.

آنذاك كان زوجها (عدنان) نحيفاً، كأنه عود قصب يابس، ذا قامة قصيرة، كذلك صغيرة، بملامح وجه طفولية.

ذات مرة، أثناء وقت استراحتي من اللعب!، حصلت معي مفارقة مضحكة:

دخلتُ إلى غرفة نوم خالتي فوجدت على فراشها متدثِّراً، غطّى كلّ جسده ببطانية ثقيلة، ظننْته ابنها «غانم»، الأكبر مني بأربع سنوات، وهو كأبيه، الذي ظل يزداد نحافة، يكاد ينفصم من النحافة، أيضا، لذلك ضربت المتدثِّر على قفاه، بكلتا يدي، فأزاح الغطاء عن وجهه، متذمّراً، وإذا به (عدنان)، يا للصدمة!، حيث غمرني خجلٌ كبير، تلك

اللحظة، بينما كركر هو، كأنّ شيئا لم يحدث، ثم غط في نوم عميق، متغطّيا بالبطانية الثقيلة من جديد، فيما أطلقت العنان لقدميّ خارجة من الغرفة، بل هاربة ركضا، ولم أُره وجهي إلّا بعد مرور عدة أيام، بحكم الخجل الكبير منه، فكان كلّما رآني ضحك بقهقهات عالية.

لم أعتده كئيبا ضجرا صامتا، منطويا على نفسه، كأنه أصبح يطالع بعيني رأسه دنيا أخرى غير مرئية من قِبلنا.

ما سألتُ خالتي عن سرّه، الذي جعله معقّدا هكذا، إذ كانت في ثورة مؤانسة حياة رغيدة، يسيرة، هيّأت أفراد عائلتها للتنعّم بها بعد تجديد خارطة بيتهم البنائية مع فرحها بزوجها الذي يضع أساسا متينا في سلّم حياتهما.

كان عملاً متواصلاً، ليل نهار، ذاك الجهد البدني الذي بذله في تقطيع الحديد، بمهارة فاقت الوصف، ليصنع منه: شبابيك، أبوابا، محجّرات، وغيرها، آملا أن يحصل مقابلها على ما يجعله ينجز بناء بيته بوقت قياسي.

لم يكن يعلم أن مخالب مرض لعين ستنشب في جزء حيوي من جسده، لن يستطيع أن يتخلّص منها، فلا نوم يطرق عينيه، بل لا يقربهما، فتقرّحتا من كثرة السهاد بفعل آلام مضنية جعلت منه شبحا في أحد أركان غرفته، يجلس على كرسي متحرّك، بوجه ضبابي لا يكاد يُبيّن أيّ ملمح.

لم تحتفظ ذاكرتي عنه إلّا بصورة رجل متألم، لا يستطيع حتى الأكل فضلاً عن النوم، حيث كلّ ما يفعله أن يمدّ يده يوصي بالصغار خيرا إلى أن يتأكّد أنهم نالوا كفايتهم من الطعام.

كنت أفتقد وجوده كلّ شهر لأيام يغيب خلالها عن خالتي وأولادهما، في البيت، وكلّما سألتهم عنه أجابوني: غادر إلى مدينة أخرى، فقط، دون أن يخبروني بما يعمله في تلك المدينة الأخرى، التي لم أعرف اسمها، إذ يظلّون صامتين قبالة أي سؤال آخر منّي كأنّ على رؤوسهم سهام موت!

أنتظره، علّه يجيء قريبا، جالسة عند عتبة الباب، ظهراً أو عصراً، أنظر إلى الشارع العام، الذي صُفّت بيوتنا على جانبيه، أُطالع السيارات المارة فيه – حدّ التمعّن في دواخلها من نوافذها – دون أيّة فائدة تُذكر!

ذات انتظار يئست من مجيئه بعدما مرّ على غيابه أسبوع، اقلّ أو أكثر، لكنْ فجأةً وقفت قبالة العتبة سيارة صغيرة، بيضاء و برتقالية، ترجّل منها سائقها ثم أخرج من صندوقها كرسيّاً متحرّكاً ليُجلس عليه زوج خالتي الذي بدا لعينيّ هيكلا عظميّاً يتداعى ببطء.

ظلّ ملازما لهذا الكرسي المتحرك، كأنّ جسده لم يمسس فراشه!، كلّما نظرت إليه وجدته يغالب آلاما مبرحة، تقضُّ جلوسه عليه!، حيث بقي كذلك بضعة أشهر مات بعدها.

لم أعرف سببا لموته إلا من تهامس نسوة في مجلس عزائه، الذي أقامته خالتي في بيتها، إذ سمعت إحداهن تكشف لأُخريات: فشلت عملية إنقاذه من السرطان، (مستعيذة بالله)، فقد أُزيل الجزء الأكبر من معدته لكن ما كان من المستطاع إيقاف زحف المرض الخبيث اللعين في جهازه الهضمي...

جاسم

طفلة، تـعَبت من التوبيخ، تفرُّ لعرائسها فتجدها محترقة، يتصاعد منها دخان أسود، بعدما أشعلتها بعود ثقاب خباثةُ أبيها «سالم»، كأنه يؤرّث سجارة، حينها يكتظُّ بيته برائحة شواء، نعم، إذ أنه يشوي لصديقتي وجارتي «زينة» قلبها، حين يحرق عرائسها الأثيرة لديها، يستفزّها لتصطدم به هامّة أن تردّ عليه، بألفاظه الكريهة نفسها، فيثنيها قرفها منه، مع بغضها له، حيث تنزوي، تاركة تلك العرائس القطنية المتفحمة، منكسرة لوحدها.

بعكسه عمّها «غيدان»، الجميل النظيف المرتّب، الذي يحبّها كثيرا:

كلّ شهر، تقريبا، دأبَ على المجيء لبيتنا، بضعة أيام، حاملاً لي أقلام تلوين و كراريس رسم و دفاتر كتابة، من المكتبة تلك التي في المرآب، حيث يعكف عند المساءات على تعليمي الممارسة الذاتية للرسم والكتابة بالتلوين لأستوعبها بسهولة محبّبة.

خلال أيّة أجازة دورية له، أسبوع شهريّاً، يشتري لها ثوبا جديدا، يزدهي قوامها به، فتريني إياه وهي تكاد تطير سعادة و بشْراً.

طوال مدّة غيابه عن البيت، في وحدة عسكرية، لا تنفكُّ من الحديث عنه أمامي منتظرة مجيئه بلهفة، تتنطّط في عينيها، وحين يجيء تتركني لوحدي، غير عابئة بي، إذ يصير جلُّ همّها وجودها قربه لأيام سبعة محبوبة.

أمّا يوم التحاقه، بوحدته العسكرية، فأبكي بتشنّج، بحرقة، لأنّني سأفتقده طوال شهر لن أحظى فيه بيد تحنّ عليّ.

من ثقوب الحائط الفاصل بين بيتينا، إذ يرتبطان به واطئاً متهالكاً، رأيتها متألّمة، يعتصر قسماتِ وجهها قهرٌ جلي، فيما يأتيني صوتها عاليا مضطربا: عمّي «غيدان»، بعدما غادرنا البارحة لمعسكره، جاءنا اليوم صديقه (جاسم)، جندي مثله، ليخبرنا بأنه أحد ضحايا انقلاب ناقلتهم الـ«إيفا»، في الطريق الدولي إلى مدينة البصرة، وقد ذهب معه أبي لمستشفى المدينة، قبل ساعة، كي يتسلّم جثمانه.

ثم انزوت عني مسندة ظهرها على حائطنا المشترك، الآيل للسقوط، لكنّني بتُّ أسمع ازدياد نحيبها و نشيجها المتواصلين، كأنّها تزفر كلّ ما ستكابده بعدما فقدت من كانت تستند عليه ولو مؤقتا. حتى أحسست بأنّها تغمغم من بين دموعها بصوت مخنوق:

كان يفكّر بالزواج باحثا عمّن تشاركه حياته (سأجعلها تعتني بك، يا «زينة»، إذ سنأخذك معنا، إلى بيتنا، كي تدخلي المدرسة).

لم أستطع لجم دموعي من الانهمار، حين بكيتها فبكيت نفسي، بينما كنت متحيّرة: لماذا يخطُّ لها القدر ما لا طاقة لعمرها على تحمّله؟!

.....

.....

.....

في اليوم التالي لأربعينية عمّها «غيدان»، الذي وعدها بالمدرسة، حدّثتني: البارحة جاء العم (جاسم)، صديق عمّي الراحل، حاملاً لي أقلام تلوين و كراريس رسم و دفاتر كتابة...

غيث

سذاجةٌ منّا، متكاملة الأركان!، أن نحيا على سجيّتنا، العفويّة غير القصديّة، فتصدمنا الحياة بصفات أناس تخيب توقّعاتنا عنهم. لكنّها الأيام، ملخّص حياة، لا بدّ أن تضع حجر عثرة في طريقٍ نسلكه.

ربّما نغيّر أماكننا، هنا احتمال، لكي نكتشف ذواتنا من خلال معرفتنا لحقيقة أنفسنا بحقيقة آخَرينا. أن نَفصل أشياء عن بعضها، ألّا نترك شوائب زائدة تتلبّسنا، هذا ما يجب أن يحصل لنا بكلّ تأكيد. كم ممّن يلبسون أقنعة للكمال والجمال، يا لله، لكن حين تضعهم تحت مجهر الوقت تكتشف خيبتك ثم لؤمهم فدهاءهم ليخدعا سذاجتك الطيبة بثقة التعامل!

بانت بوادر حرب تطل على بلدنا، من حدِّه الشرقي، لم نحسب يوما أنها ستستمر ثماني سنوات. صار شبابنا حطبا لنارها، منذ إيقادها حتى إطفائها، بمن فيهم طلبة الصف السادس الإعدادي ممّن يفشلون

في التأهل إلى الدراسة الجامعية الأوّليّة، هكذا هي الآن إذاً، حيث فتحت أفواهها لابتلاعهم، تنتظر جبهاتها المترامية قدومهم: يواجههم الامتحان العام «البكالوريا» في غاية الصعوبة، عسيراً غيْر يسيرٍ، فلا ينجح فيه كثيرون منهم، رغم اجتهادهم!، ليساقوا إليها جنوداً.

كان لخالتي «وداد»، التي أُحبّها كأمّي، فقط أولاد أربعة: غانم، غيث، غزوان، غازي، قُدّر لثانيهم (غيث) أن يغدو أحد أولاء الطلبة الذين سيقوا من بيوت الآباء الآمنة إلى جبهات الحرب المستعرة، مارّين بمعسكرات التدريب القاسية، لتظلّ الخالة خائفةً متحسّبة، عيناها نحو الباب و يداها على القلب، فقد يأتي ابنها إليها نعشا ملفوفاً بعلم في أيّة لحظة، نعم، حيث كلّ يوم يمر سلاماً من دون هذه اللحظة بمثابة نعمة إلهية!

أمّا أنا، حيث عمره كعمري، فقد افتقدت من كان يناكدني، يثير حنقي عليه، إذ كنّا نتعارك فنتخاصم ثم نعاود صحبتنا، من جديد، حتى أضحى أحدنا لا يهنأ إلّا إذا سمّم يوم صاحبه.

كانت عركاتنا لذيذة، رغم أن أسبابها تافهة!، إحداها أننا حين نلعب «الشطرنج»، مثلاً، يقتل ملكي فأفزُّ مستغربة: كيف تسنّت لك هذه المهارة؟، شاكّة فيها، ثم أتعارك معه، بدعوى أنّه غشّاش، كي أُبطل فوزه عليّ!

كان يُتقن اللعبة، والله، أقولها بأمانة، نعم، لكنّني أتساءل اليوم: أكان ماهرا في لعبة الحياة؟!

كذلك شغلنا ساعات كثيرة في لعْب «الورق»، نفرده جوكرات و آسات، بصخب متواصل طيلة كلّ نهار.

ما لي أرى الآن كأنّ الساعات قطرات ماء، فقط لا غير، تتسرّب منسابة من أصابعي دون أن أشعر بها؟!

ثم لطالما انتهى أي حوار بيننا بجدل عقيم، لا أفق له، يبدو هو فيه صعب الإرضاء حتى بحلٍّ تطرحه علينا خالتي.

لذلك ظلَّ متمرّسا في إثارة حفيظتي، غالباً، كلّما نطقتُ كلمة شعر بأنها تستفزّ رجولته، مع اعتداده بأنه أفضل مني في كل شيء، أولا و أخيرا، وأنه دائما على حق، سواء كان مُصيبا أم مُخطئا، بل أنه لا يرغب حتى بوجود ندٍّ يشاركه فرحته بفوزٍ يحقّقه!

ذات يوم، بعد عديد الأشهر في إحدى الجبهات، حين جاءنا وفقاً لإجازة دورية، أمَدُها أيام ثلاثة فقط، رثينا لحاله، كلُّنا، إذ نحف أكثر من ذي قبل، بكثير، فبدا لنا هيكلا عظميّاً، لا يكسو عظامه غير جلد أصفر شاحب، كأنه يخطو فيما الموت يواكب خطوه!

ظل طيلة مدّة إجازته الدورية مهمهماً مغمغماً، بعبارات حانقة، إذ سمعته يُكلّم خالتي، مستلقياً على فراشه، يشكو لها عطشه هناك

بضجر ولوعة: لا ماء، ولا طعام أيضا، إذ نضطر لماء آسن في بُرك يتجمّع فيها، آه يا أمي، نقوم بتصفية قطرات منه، علّنا نروي بها عطشنا، حيث نضع قطعة قماش خفيف في أيّة بُركة لتترشّح لنا منها بصعوبة بعض القطرات المجّة التي نبلّل بها شفاهنا!

كانت في كلامه، لخالتي، نبرة ألم ذات حيرة و حسرة: لم نأكل لأيام سوى خبز يابس، إنْ صحّ لنا، لكنْ بضع مرات، بعد صولات و جولات معهم، تموضعنا في خنادق إيرانيين فوجدنا قشور رقّي مصصناها!

تحتضنه الخالة باثّةً فيه أملا كاذبا بأن الحرب لا بدّ أن تنتهي قريبا، ككلّ شيء في الحياة، فيزمجر متوعّدا بعمل أحمق إنِ استمرت بهذا الموّال، حسْب تعبيره، فتسكت، على مضض، بينما يكرّر بحنق: لا تعلمين ما نعانيه هناك، يا أمي، لهذا تتكلّمين بكلّ ثقة عن انتهاء حربه اللعينة!

عندما حان موعد إجازته الدورية التالية، كما أخبرنا به قُبيل ذهابه إلى وحدته العسكرية، لم يأتِ، غاب عنّا فيما مرّت أيام، فداومتْ عينا خالتي ترقبان طريقه: ربّما يأتي، لعلّ و عسى، حتى جاءها خبرٌ صاعق: أُسر خلال معركة «الفاو».

ظلّت المسكينة تكابد لوعة انتظاره متأمّلة أن تأتيها قصاصة بخطّه، لتطمئن، إذ بقيت على هذه الحالة شهورا، في قلق مضنٍ،

إلى أن يئست، أو هكذا خُيّلتْ لنا، لكن دُقّ الباب، أخيرا، فطارت فرحا مزغردة بصوت عال، حتى سمعها الزقاق بأكمله، إذ جلب لها مسؤول في جمعية الهلال الأحمر ورقة مختومة خُطّت عليها حروفه الكبيرة فتأكّد لها، دون أدنى شك، أنّ ولدها (غيث) حيٌّ أسير...

سارة

أتصدّع حين أزداد يقيناً بأنّ ما فيّ لم يكن ليصيبني لولاي! كذلك تنتفض أطرافي، أسوة بتصدّعي هذا، إذ يصير جسدي قالب ثلج، بل أبرد منه، فأهمُّ بإطفاء جهاز التبريد، الوحيد في غرفتي، متدثّرة بلحاف سأرميه بعد قليل بعيداً عني!

ها أنا اليوم أفتقد خطيبي «إسماعيل»، خصوصا كلماته!، فلطالما كلّل وجوده معي بالحنوّ عليّ، ساعاتٍ طوالاً، لينتشلني من سأمي، المزمن؟، مذ حمل في محفظة قلبه أسراري كلّها مختنقا بتفاصيل حياتي بدءاً من طفولتها!

دائما أنظر لشعره الأجعد ونظاراته الطبية، كلّما التقينا، فيما يتأمّلني عن قرب كأنّني مرآته.

كم أشتاقه خلال اللحظة هذه، لنشاهد معاً عوالمنا الضائعة، متشوّقة لعودته فرؤيته الآن.

ليس من المروءة، أبداً، أن يتركني وسط الطريق معلقة: لا أنا له فانتظر نصيبي معه ولا أنا لغيره فأبحث عن قسمتي مع غيره!

ثم أن لؤمه معي بعدم الرد على رسائلي، حيث صمته تجاهها، جعل مني امرأة مشوشة لا تعرف بأيّة بوصلة ستوجّهها رياح القدر.

كان عليه أن ينفض عن جناحيه حزن الأيام السالفة، الماضية، فينطلق بكلّ ما يحمله الصقر، من رشاقة ذات زهو، ليصطاد لنا أياما جميلة مشرقة.

لطالما قلتها له: «لخاطري عندك»، فيضحك مستهزئا!، اليوم أكررها: «لخاطري عندك» عُدْ، يا حبيبي، ها أنا أنتظر إطلالتك المحبّبة من جديد.

في رسائله لأمّه (سارة)، التي تحبّني أكثر ممّا تحبّه!، أبحث عنّي فلا أجدني ولو بسطر من إحداها!

هي تعي، كما تُخبرني مراراً و تكراراً، بأنّني أجذف لوحدي، دون ابنها، فتحملني أمواج روحي بعيداً!

منفضة للاحتراق يغدو هذا الرأس، الذي هو رأسي على كلّ حال!، فيما أتسربل بحزن جديد قديم.. ثمة كلمات لا تُنطق.

حين تمر في فكري لحظات سعادة، تكاد تكون نادرة جدّاً، أُفصح لها:

عندما كنت في مرحلة الدراسة المتوسطة، مراهقةً حتماً، قرأت - بشغف غير طبيعي - رسائل «عبد الستار ناصر» لزوجته، التي تغرّبت عن الوطن، فردّدْت مع نفسي: هل هنالك حبٌّ كهذا لا يزال موجودا الآن؟!

كأنّ شخصاً ما يُحرّكني، بذاتي أو لذاتي!، رحت أبحث عن كتابه، بين رفوف مكتبتي الصغيرة، وحين وجدته، على أحد الرفوف، قلّبت صفحاته - واحدة بعد أخرى - معيدة قراءتها: ((أكتب لك لأول مرة بعد غياب طويل.. ولأول مرة في حياتي أخاف مما أكتب.. أي سحر في صوتك الغامض العجيب؟ كيف تصرف إلى كل وريد في جسدي وغطى على كل شريان يسري في دروب عقلي؟))...

طفتُ، كأنّني أُخرى، أهيم في عالم آخر غير مرئي!

ها أنا ذي أكتب اليوم لرجل هجر بلده، أم هاجر منه؟، فظلّ يتذكّرني، هكذا أظنُّ، شغل عقله تفكيري، بكلّ جوارحي، آملةً أن نلتقي في يوم فرض سطوته علينا!

هل مرت صورتي على تلافيف دماغه، فاختزنها عقله، بحيث لا يزال يتذكّر ما كتبه لي يوما؟!

هنالك كلماته، تلك، التي خطّها بقلم رصاص على غلاف ديوان للشاعر «نزار قباني»، ما زلت أتذكّر عنوانه: «أحبك أحبك والبقية تأتي»، بعدما اختطفه من يديّ: ((هذه أجمل أشعار لنزار مفعمة

بحنان لذيذ.. أسماء.. أشعرني معك كألق يترجرج لهفة ووجداً وشغفاً ينساب كسرب طيور الغاق))...

فهل من الحكمة أن نترك حياتنا، إذاً، لنُصدّق كلّ ما خطّه لنا الآخرون؟!

أمتقع عندما أكتشف، أحياناً، أنّ ما كان يبرق ليس إلّا معدنا رخيصا، حتى لو ليس مغشوشاً، وأنّ بعض الصدود لحماية النفس لا يعوّض ما تسرّب منه فظلّ أثراً في الكينونة!

لكنّني، في المقابل، دائما أفكّر مع نفسي: لا بأس تشرّبي الواقع، عيشي، فقط إيّاك الانزلاق في أتون رغبات ساذجة.

أنتِ صادقة، عمّتي (سارة)، حيث الدليل على ذلك نشيجك الذي ظلّ يغمرني كلّما لاح لي طيف «اسماعيل» ملحّاً في التشبّث داخلي.

تنقطع السماء عن التأفّف و التنهّد، كليهما معاً، كأنّها تغلق أُذنيها عن الإنصات لصوتي فتصمت قبالة وقّع كلماتي التي تبدو هرمة!

كُلُّ شيء بات يعكّر صفو يومي، أعني حاضري، خاصة روحي القلقة بسوداويّة اعتاد عليها الجميع.

أستمع لأغنية «البنفسج»، بصوت المطرب «ياس خضر»، حيث تـنساب نغماتها متواصلة، مستمرّة، فتطوّقني بحزن سرمدي كأفعى

تلتف عليّ نافثة فيّ سمّها. أُحرّضني على المقاومة، أيّة مقاومة، لكنّها بمرونتها اللئيمة، تلك الدائمة، تنسلّ إليّ، ليس منّي!، فلا أحصد منها، بعد استفاقتي، إلّا وقد تضاعف تورّم وجهي. كأنّ من يراه، هكذا، يظنُّ أن أحدا ما قد صفعه، عدّة صفعات، فبانت عليه خطوط حمر زرق، داكنة، يطالعها بريبة، ممّا يحدث لي، حذِراً من السؤال عنها.

يعلم كثيرون أنّني غدوت سرّاً مغلقاً، باتّاً، إذ أعتزلهم بوحدة، قلَّ أن ترى امرأة تفعل ذلك في هذا المكان الذي أتواجد فيه، لأمحو ما ترسّب في ذاكرتي، حدّ التكلّس فيها، لعلّي أوفق بنسيانٍ حاسم، يُنجيني منها كلّها، أو أنعم بطاقةٍ إيمانيّة، إيجابية ليست سلبية!، أقوى مظاهرها الدعاء، حتماً، بأن ينظر الله لأعماق نفسي، كي يطّلع على نار مصبوبة مسكوبة في دواخلي، أن يمطرني برحمته التي وسعت كل شيء.

تمكّنت منّي حالة غريبة، تُصيبني بين حين و آخر، لا أعرف لها سببا، بحقٍّ، لكنها غمرتْني، ممانعةً كلّ سبلي بالتملّص من سطوتها، حتى شاغلتْني، طيلة وقتي، فأخرجتني، لاحقاً، من حالة للرتابة والسأم، أيْ «روتين»!، إلى أخرى للرياضة والأمل، أيِ «فري»!، أتاحت لي، فـوراً، أن أتمشّى قليلا، دون أيِّ يأس، مـردّدة: إنّ الاستغراق في رقاد هانئ بلا قلق نعمة، لا شيء يضاهيها، فكم هو جميل لو وضعت رأسك على وسادة لتغط في إغفاءة عميقة؟

تمنّيت أن أكون دبّاً قطبيّاً، هكذا؟، أعيش متنفّسا في سبات شتوي!

إنّما هيهات، عمّتي (سارة)، ذلك تمنٍّ، فحسب، أُحاول أن أشغلني به، ليبعدني عن أيّ تفكير، لكن دون جدوى، نعم، إذ يأخذني لمنصّات ودروب، لا أعرف من أين يستلّها، كي يقضّ بها مضجعي، يااااه، فأرتعب قبالة مجهول سيطلّ برأسه عليّ.

أمّا لماذا أضجر منه، بعد ارتعابي منه، فلأنّ لا سيطرة لي على أفكاري تجاهه حين أراها تسيطر عليه فتغلبني!

للحياة ديدنٌ لا بدّ أن نعيشه، أفراداً أو مجتمعات، قد يكون حلماً بطمئنينة ومسالمة.

هكذا أُبعدني عن هواجسي، تجاه الحياة، لكنّ داخلي يستصرخني، يُطالبني بالكفّ عن ذلك كلّه، أن أعيش يومي فقط.

أعلم أنه بات لا يعبأ بي، أقصد ابنك «اسماعيل»، لذلك لن تهمد ثورة غضبي عليه، أبداً، رغم شعوري بجلبة في روحي، متهدّجة، ترقبه من بعيد!

كأنّني أخاطب شخصا يتلبسني طيفه: ليس من السهولة أن تتخلّى عن نبعٍ شققْته بمعولك في صخر روحي، يا هذا، ولا من الحكمة أن تتأبّى بردم حفرة نار وضعت فيها كلّ وقودك ثم صببْت زيتاً تضيء بنوره حياتك لا حياتي.

ها أنا في أتون نار ظلّت متّقدة تصهر بوهجها شراييني.

هل يمكنني مُسامحتك؟

دخولك المتكرر إلى حياتي لم يصبني إلّا بلعنة أبديّة أُحاول التملص منها دون جدوى!

ما معنى أن تشقّ لنفسك طريقا في حياتي ثم تفرّ هاربا؟!

مخادعةٌ كلماتك التي نثرتها، كزهور قطن تشكّني، إذ تنزّ دمي أشواكها كلّما هممْت بقطفها...

فكيف بحقل زرعته في سفح روحي؟!

أدونيس

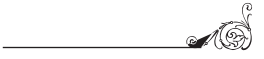

بتُّ أقرض مساءاتي، كفأر وقع في مصيدة، فتتخضّب بغروب شمسي.
أُهدهد سرير ذاكرتي، بخيال بعيد، فلا شيء غير قطٍّ أسود أتخيّله متسلّقاً سلّم حياتي، كأنّما يزجرني بعيني جنّي يربض فوق سور عال، ينظرني بطرف خفي فأهرب مُنزوية.

جُلّ صديقاتي، فضلاً عن نساءٍ حولي، قد تزوّجن، يرفلن اليوم بسعادات حقيقية أو مزيفة لا فرق، حيث وجود الزوج يكسر رتابة الحياة، يدفع وقْعها الروتيني بعيدا، فيما بحساب بسيط لسنواتي، الآن، أشهق بخوف وفزع من وحدة قاسية، تلتف على عمري، لكنّني أستهزىء بما وصلت إليه، بعض الأحيان، مغمغمة مع نفسي: الوحدة خير من العيش بخديعة عشق.

أتلفّت في ظلامي فتطير خفافيش، متعثّرة!، تلفّني بسحابة سوداء.

على علو منخفض لأحد جدران بيتي، الذي أعيش داخله وحدي، لمحت نبتة اتّكأت متبرعمة في أصيص فتفاءلت خيراً.

هممْت بالقراءة، في الباحة الخلفية للبيت، فاخترت من مكتبتي كتاباً للشاعر (أدونيس)، عنوانه «زمن الشعر»، ما أنْ قلبت غلافه الأول صعقتني كلمات لـ«اسماعيل» على صفحته الداخلية الأولى، إذ هي بيضاء أصلاً، كتبها قبل أن يغادرني آخر مرة: ضوعك لا عطر طيفك/ من أسكنته جسدي/ تأوّهات تصفق بأجنحتها سرب طيوري/ غاق ظلّ مندفعا متمايلا/ متموّجا كموج بحر هادر/ منخفضا شاهقا/ نجومك تُزيّن وحدتي/ أرديتي تتضوّع بعطرك/ تتناسم روحي/ تُقبّلني أوشحتك/ يُفزعها أمسي/ خفيضا يصرخ بدمك/ الكلمات بعينيّ/ تتهرّبين/ تغدين مركبا في لجٍّ هائج/ أرقب دم الكلمات/ فأين أنا منها أو منك؟!

يُكدّرني اللون الرمادي، الذي تبدو عليه بعض الأشياء، فلست من محبّيه...

رغم أنّنا نعيش في مدينة حبتْها الطبيعة جوّا تتفاقم في صيفه عواصف نهارية ترابية، تهجع ثم تشتدّ، أحيانا نفرح بالهواء الذي يحمل معه ذرات الغبار، المزعجة، ليكتنف المساء برودة محببة،

بعدما تنحسر العاصفة النهارية الترابية، تزيح عن أرواحنا معاناة قيظ لاهب نصطلي فيه خلال شهري تموز و آب.

هكذا شبّهتُ له ما كان يحصل بيننا: عصفٌ رمادي خانق!

سيكا

ناجيته، حيث تخلّل نشيجٌ مُضنٍ كلماتي، متسائلة: ما هذه التي لكلينا الآن؟!

ألم نكن رمادا منذ البدء، معاً، فأيُّ اتّقاد سينعم به الرماد؟!

ألم تتمزّق أجنحة الحلم؟ ألم تقتنصها الأيام؟

أصرخ بألم، يكاد يقطع أوصالي، حين أخالني أُستثار غيضا و غضبا.

أيّة خزعبلات، لحكاية بسيطة، تلك التي علقت في رأسي؟!

أضحك عليّ، على ما أشعر به، مُنتهى الخبل الآن، ليس الآن حتماً بل قبْلاً، ما زلت كما أنا: بئر للتناقض .. هواجس و هوس!

ثمة كلبة، بيضاء مرقّطة بسواد، تربض قبالة بيتي، الذي أسكنه بمفردي!، أراقبها من نافذة مطبخه المطلّة على شارع واسع، ليس زقاقاً ضيّقاً، حيث أراها تفترش أرضاً شاسعة فيه، بجوارها تغفو جراؤها، فيما كلبها مفقود، غير موجود معها الآن، حيث افتقدت

نباحه منذ مدة، لا قصيرة و لا طويلة!، فلطالما سمعته خلال ساعات ليل متأخّرة ثم ساعات نهار مبكّرة.

أخبروني، فرادى متفرّقين، أنّ اسمه (سيكا).

هُم صبية ما زالوا يلعبون، يمرحون حتى حين يتصايحون، خلال هذه اللحظات المحملة بنسمات باردة مسائية، قبل ولوجهم إلى بيوتهم دفعة واحدة، إذ لا تكاد ترى أحدا منهم إلا عند المساء، من كلّ يوم، كأنهم يقضون نهارهم في النوم فلا يستفيقون منه إلاّ وقت الظهيرة، صباحاً لهم، كما هي عادتهم في أيّة عطلة صيفية، أمَدُها ثلاثة أشهر، ذات نهارات لاهبة، تُفقد المرء قابليته على الحياة!، حيث درجات حرارتها عالية تجعل كثيرين يهرب من أشعة الشمس لئلّا يداعبهم موت محقّق.

صرت أراه باستمرار، طيلة عدّة أيام، عندما أتطلّع من نافذة مطبخي إلى الشارع العام، إذ تطلّ عليه، كي تُسلّيني ليلاً إضاءات السيارات الذاهبة و الآيبة فيه، خاطفة من بعيد، فربّما تمسح عني سواداً لطالما تراكم سخامه في روحي.

بيتي الآن، هذه اللحظة، يطبق عليه فكّا صمت، وثمة هدوء يكاد يلتهم جدرانه، لا صوت غير أزيز روحي، تلوب جزعا و خيبة، مظهرة للغير سعادة طافحة لكنها مخفية عن عيونهم ما يضطرم داخلي.

الكلب (سيكو)، الذي كان يربض مع كلبته وجرائهما قبالتي، لم أره اليوم، لا ليلاً و لا نهاراً، أبحث عنه فأجد عمّالا و حركة لحديد وخشب فضلاً عن آلة صب و مطارق و عربات تحمل مواد بناء.

ها هو يهجر بيته بعدما قضى عمره يحاوطه مؤكّدا ملكيته، ينبح ليلا للدفاع عنه مبعدا كلّ من تُسوّل له نفسه أن يتجرأ على الاقتراب من حدوده، لكنْ ثمة بشر غلبوه على أمره...

علاء

إندفعت كلمات خارجة من فم الخالة «جليلة»، جارتنا الأثيرة، تُحلّق في سماء التوقّعات الغيبيّة. مرّاتٍ أضحك من سذاجة نسوة، جارات لها، يصدّقن كلّ ما تنطق به أمامهنّ. كان مرسالها إليهن ابنها (علاء)، في العاشرة من العمر، إذا تعذّر عليهنّ المجيء إليها.

أحياناً، مع نفسي، أُغمغم أمّارة بسوء: لو كانت تعلم بكل ما يحصل، ممّا خُطّ في لوح الغيب، لعلمتْ أن دجاجها، داخل قفص كبير فوق سطح بيتها، قد بدأ بالتناقص، خلال بضعة أسابيع أخيرة، إذ أخبرتني «زينة»، جارتي و صديقتي، بأنّ (علاء)، لأنّه يُحبّها كثيرا، يعطيها دجاجة، عبر الجدار المشترك لسطحي بيتيهما، كلّ أسبوع تقريباً.

ذات نهار، من نهارات زقاقنا الضيّق، كنت واقفة عند باب بيتنا حين مرّ أمام ناظري..

أنّبته: لماذا تسرق دجاج أُمّك؟ فبُهتَ: أنا أسرق دجاجها؟!

كان يدري بأنّ «زينة» صديقتي، لأنّها جارتي أصلاً، لذلك أدرك مغزى تأنيبي له: أُمّي هي التي تأمرني بإعطاء دجاجة لـ«زينة» كلّ أسبوع.

هنا بُهتُّ أنا، هذه المرة، لكنّني تداركت نفسي بسرعة، بُعيد هُنيْهات فقط، إذ طلبت منه توضيحاً لما قاله فاستجاب: كلّما أكرمت امرأةٌ أُمّي أرسلتْ من خلالي دجاجات لعوائل فقيرة، في الزقاق إضافة للحيّ، ومنها عائلة «زينة»...

كانت أُمّه قد دأبت على ابتكار توقّعات غيبية، أي أحداث مستقبلية، لنسوة عصفت بهنّ حيواتهنّ، يأتينها من حيّنا وأحياء محيطة به، حيث هنالك من تبحث عن ولد فُقد أو تترجّى كلمات تُطمئنها بشفاء ابنتها أو تجاوزت سن الزواج متمنّية «ابن الحلال»! يطرقن باب بيتها، القريب لبيتنا، بعدما تعثّرن في الوصول إلى غاياتهن، شتّى الغايات، كأنّ لديها حلّاً جاهزا لكل شيء، تقول له «كن فيكون»، يأتيها طائراً في الهواء، لأيّة حالة مستعصية، حتى يحطّ عند الباب. ذلك ليس مقتصرا على غريبات أو جارات، لا، بل ثمة أقارب لها يتفاءلون بكلماتها.

حدّثني (علاء) عنها: تنظر بتمعّن لنَوَيات سود، من التمر، تلفّها بقماشة بيضاء مع كيس صغير، خاطته هي، تربطه من الأعلى، لئلّا

تضيع منها، ثم تضيف لها قواقع، ذات أحجام مختلفة، تجلبها من شاطئ النهر، حيث تذهب إليه مساء، كذلك كلّما عثرت على قطعة نقدية معدنية قديمة وضعتها في الكيس الصغير، العجيب، الذي اشترت لأجله طبقَ خوصٍ منقوشاً برسمات متداخلة جميلة، ملونة.. حمر وزرق وخضر، إذ وضعته في هذا الطبق رافعة إيّاه على رفٍّ عالٍ بعيد عن الأيدي...

داغر

عند المساء، كلّ يوم، تطرق نسوةٌ باب بيت الخالة «جليلة»، المجاور لبيت «زينة»، حيث تجلب كلٌّ واحدة منهنّ نقودا لها، مقابل توقّعٍ غيبيٍّ!، متبرّكة بها وهي محلّقة معها في عالم من اللاوعي.

أتذكّر، مذ أنا صغيرة، أنّها ظلّت تؤكّد لأمي حين تسألها عن مصير أبي ((زوجك حي يرزق))، تماماً، مضيفة أنّ المال سيحطّ علينا من السماء غير متوقّعين قدومه، لكنّه سيأتي قريباً، ثم تشير إليّ بسبّابتها اليمنى مصرّحة: أمّا أنت، يا «أسماء»، فسيطرق بابك «عريس الغفلة»، أخيراً، ستحظين بالزواج.

حدّثتني أُمّي عنها: ذات مساء استضاف بيتها جاراتها اللائي في زقاقنا، كلّهن بمن فيهنّ أنا، كي تمنح لكلّ واحدة منهنّ توقّعاً غيبيّاً فيما دلالات الفرح تنط من عينيها: حميدة، أريد «بشارة»، ستُرزِقين بصبي بعد البنات التي ابتليت بهن.. وأنت يا أم أحمد، ستلد كنّتك

بيسر، لا حاجة لمستشفى، تكفيها القابلة أم خالد، ستكون ولادتها ميسّرة.. أما أنت يا فاطمة، فستتفوّقين في الدراسة، ستكيدين صديقاتك ومن يحسدك.. يا عائشة، بخّري بيتك كل يوم في المساء ليخرج النفَس الذي يفرق بينك وبين زوجك وتُطرد الأرواح الشريرة من بيتكما.. يا نجاة، قرينك قوي شديد، يسيطر عليك تماما، فاغلبيه بالذكر والتسبيح، يبتعد عنك، هكذا أسمعها، أطرب لكلماتها، بينما أنتشي لانتشاء الجارات المصدّقات لكلّ حرف تنطق به.

مرّاتٍ، متمعّنة فيها، أُردّد في سرّي: ما بها الخالة «جليلة» مع «زينة»، صديقتي و جارتي، لا تجلب لها الحظّ، الذي توزّعه يمينا و يساراً حتى على غريبات، ولا تعطيها الأمل، الذي تبثّه في نفوس الجارات، أليست هي أوْلى بهما، أقصد بالحظ والأمل هذين، فهي بلا أُمٍّ، لذا تعيش ضنكاً مزمناً مع أب مقرف، إذاً لماذا تتجاهلها، تماما، هل لأنّها لا تمتلك ما تدفعه تلكم النسوة من نقود؟!

ذات مرة، حيث أرسلتني أُمّي إليها، رأيت عندها امرأة غريبة، لم أرها سابقاً، عرفت حينها أنها زوجة عريف متقاعد، أَسكن عائلته حديثاً في حيّنا، وقد التقطت اسمه (داغر) من كلامها، إذ كان مسموعاً بصوت أبحّ!، بعدما اصطدمت عيناي بوجهها اليابس، فلا لحم يُزيّنه، فيما بدنها رجاليٌّ، تخفّى بثوب نسائيٍّ، ذو يدين مشعرتين، !!!، أصابعهما «مكعبرة».

لاحقاً سأعرف من أُمّي أنّ العريف المتقاعد (داغر)، ذا الزوجة المسترجلة هذه، قد أُعجب بالخالة «جليلة»، صاحبة الضفائر السود للشعر المسرّح النظيف المعطّر دائما، حيث استقتل للاقتران بها، ذائباً فيها عشقاً، لكنّه باء بفشل مُزمن، يستأهله، حيث رفضته كما رفضتْ سابقيه ثم ترفض لاحقيه!

شنشل

سحبتني «زينة» من يدي اليسرى، في بيت أهلي، تلحّ علي أن أذهب معها إلى بيتهم، مستحلفة إيّاي أن أدخله، فتحجّجت بأمّي، حيث ترفض تماما أن أدخل أيّ بيت من بيوت الجيران، لكنّها تضرّعت لي بكل عزيز أن أطاوعها، لبضع دقائق، لذلك استغربت مستفهمة (لماذا؟ ما لك؟ ما الذي حصل؟) فتبسّمت بمرارةٍ هامسةً (سأريك شيئا أعطني رأيك فيه)!

ما أن دخلت البيت، برفقتها، بدا قبالتي، جالساً، رجل كبير في السنّ، يرتدي بنطالا رماديا مع قميص قهوائي، خطَّ شيبٌ شعر رأسه فيما بانت تجاعيد على وجهه الذي تميل بشرته للبرونز بحيث يخمّن الناظر له أنّ الشمس أخذت حقّها من جلده.

سحبتها بعيدا عنه، لئلّا يسمعني، حيرى: من هذا؟!

بتهكّم واضح، ذي سخرية ماطّة بها كلماتها مطّاً، أجابت: زوج المستقبل (شنشل)!

ضحكت، ضحكاً كالبكاء!، صائحة بلا وعي: بعمر أبيك!

دون أن تنظر لوجهي، لا أدري لماذا، ردّت هازئة: لتكتمل معي ضربات الحياة! جررْتها إلى الخارج من زيقها، غاضبة عليها، كما يُجرّ حمار حرن في مكانه متطلّعا لما حوله بعينين خاويتين.

لامست أقدامنا تراب الزقاق، ملأت أنفينا ذرّاته المحلّقة في الهواء، حيث ملْتُ برأسي نحو أذنها اليمنى، كأنّي أخشى أن يسمعني الرجل القابع هناك، ثم همست فيها: لا تتزوّجيه، إنّه «كركمة»، أمجنونة أنت؟!

تهاوى ثقل جسدها على التراب، متربّعة في جلستها بعدما دارت بذيل ثوبها ما ظهر من ساقيها، ثم راحت تحرّكه بعود صغير، وجدته قرب مكان بروكها، وهي تضعني أمام أمرها الواقع: لن أرفض زواجاً تقرّر، لا خيار لي غيره سوى الموت، أبي قبض ثمنه!

صحت بها: لن تموتي! فردّت عليّ: «من يداه في الماء ليس كمن يداه في النار».

عندها صمتُّ، نعم، فبماذا أردّ عليها وأيّ شيء سأقدّم لها وأنا كما هي؟!

حمدت الله أن أمي ترفض تزويجي، إذ يطرق بابنا كثيرون، متحجّجة بغياب أبي، هكذا تردّ من يطلبني للزواج: لا أحدَ مسؤولاً عن البنت

غير أبيها وهو غائب، فإذا أصرت خاطبةٌ على خطبتي لأحدهم ردّدت أمي لازمتها التي حفظتُها لكثرة ما نطقت بها في حضوري: الرجل مختفٍ، هذه لحمه و دمه و عرضه، كيف تريدين مني أن أتصرّف من رأسي وماذا أقول له حين يجيء سالما إن شاء الله؟!

ثمة نسوة قريبات لخطيبها (شنشل) بدأن يظهرن في حياتها، يسيطرن عليها، كي يُهيئنها للزواج القريب.

بعد بضعة أيام، لم تتجاوز أسبوعا، رأيتها تبرق، ناصعة، إذ ظهر بياض بشرتها، فقد انزاحت عنها قاذورات تجمّعت على مدى سنوات كثيرة!، وكانت قد جاءتني تهرول فرحة، في بيت أهلي، تزيل قماشة تربط بها شعرها، كذيل حصان، لتفرده أمامي، حتى يبين لامعا نظيفا ذا خصلات مسرّحة، بحيث غدت كزهرة جوري متفتّحة توّاً.

هنا تباهت بثوب مكشكش «شوفي»، إذ ارتدته قبل قليل، فيما راحت تحدّثني:

ذهبت إلى حمّام بمعيّة قريباته، أعني خطيبي (شنشل)، حيث ماء ساخن يغلي، يتصاعد منه بخار كغيوم محمّلة برائحة عبقة شذية «تردّ الروح»، لعبت فيه، جالسة قرب أحد أحواضه، بل ظللْت أصبّه على جسدي، كله، والله كأنّه يتشرّبه عطشا لغسل مثل هذا منذ زمن بعيد. ثم بدأن بدعكه، كأنّهن يجلفن «طاوة» تراكمت دهونها، بينما أداعب قطرات الماء النازلة عليه، متحسّسة بروز نهديّ بتكوّرهما لأول مرّة،

فأحسّ بشعرٍ زغبي بين فخذيّ، أووه، ستزيله إحداهن، بمهارة عجيبة، فتصير منطقته كجبنة بيضاء طرية. بعدها أمرنني أن أُدشّن حمالة صدر حمراء، من الدانتيل، معها باللون ذاته لباس صغير، لا يكاد يسترني، ألبسنني فوقهما فانلّة خفيفة، ناعمة، ثم ثوبا مورّدا، ذا تطريز بارز، بينما انتعلت في قدميّ «شحّاطة» بيضاء.

قبل أن أخرج من الحمّام، حيث كنت فرحة، تلقّفت إحداهن عباءة سوداء لففتني بها، كأنّها خيطت على طولي، لكنّني سابقاً لم أرتد عباءة، فلا أعرف كيف ألفّها على جسدي، لذلك كلّما تحرّكتُ يمينا أو يسارا انزلقت من رأسي. لقد تحدّدت حركتي، تقيّدت بما سربلنني به، فلم تدم فرحتي إلا لحظات، قلائل، تمنّيت بعدها لو عدت إلى طفولتي، التي أراها تُسلب مني، حانّة لطيشي ونزقي. فيما كُنّ يُحطن بي من جميع الجوانب، متمكّنات من رصِّ أجسادهنّ على أطرافي، حتى أحسست بأنّهن يخشين أن أهرب من بين أيديهن!

حين وصلنا إلى بيتنا، حيث ظللْن معي!، وجدت ثوبا مكشكشا، هذا الذي عليّ الآن، خاطته «سليمة» أخت خطيبي (شنشل) آمرة إيّاي بأن أرتديه. ثم أجلستني أمام صينية، كبيرة، بُعثر عليها حلقوم و جكليت، فضلاً عن «منّ سما» موضوع بطريقة صفّ كتل جميلة، كما رُصفت فيها صحون ملأى بحنّاء وشمع وآس، تحتها قماشاتٌ

بيض ذات تطريزات ذهبية، كذلك مُلئت مرشّات بماء ورد طيّبت رائحته جوّ المكان. هجست أمراً مقلقاً، لا أعرف ما هو، رغم فرحي، بالحمّام والملبس والصينية، لذلك خفت، ليست لديّ أُمٌّ لتخبرني (ماذا أفعل؟!)، إذ جميع النسوة حولي غريبات، لا يعنيهنّ شيءُ من أمري، فيما ظللْت جالسة قبالتهن تطالعهنّ عيناي بحيرة. بغتةً اقتربتْ مني إحداهن هامسة: «لا تخافي، شكة دبوس»، بينما الأخريات بين رقص وغناء يتقافزن ضاحكات مرحات، حينها كنت صامتة واجمة مستسلمة لمصير بتُّ أجهل (كيف ستكون نهايته؟!).

سارتر

ها أنت تقولها، أخاف أيّة نأمة منهم، نعم، هذا شعوري و هذه حقيقتي، فليست الثقة أمرا واردا في قاموسي، هو ذا ما علّمتني إيّاه الأيام، يا صديقاً لطفولتي وصباي، ثمة خوف ليس من رجال جبناء، لا، بل لواقع متهاوٍ وخذلان غادر ومستقبل مجهول.

متشابهان نحن بالرؤى والأفكار، متفقان على أن أحدنا يحفّز آخرَه للعيش في هذه الحياة، لكنّنا، كما كلّ مرة، نصل لنقطة التقاء ثم نُعاود بعدها عذابنا من جديد.

تقرأ لي من كتب الوجودية، تلك التي انتشرت بين الشباب وقت تطلّعوا للّا إنتماء، ما يقول فيها ملهمك (سارتر)، صديقك الذي تعتنقه!، غير أنّ آراءك تنطق خلافاً لما تؤمن به..

((لا وجود للحب إلّا الذي يبني ذاته، وليست هناك إمكانية حبّ إلّا تلك التي تظهر ذاتها في حبّ معيّن)).

أردّك، حيث اليوم كما الأمس، بزفراتي: حياتك التي اخترتها، لي و لك، كانت بمعزل عني.

تحثّني أن أتمسّك بهذه الطروحات..

((الإنسان هو الكائن الذي يسبق وجوده ماهيته، إنه لذلك حر، لا يستطيع إلّا أن يريد حرية الآخرين، فأنا باسم إرادة الحرية، التي هي جزء من الحرية ذاتها، أستطيع تكوين أحكام أُصدرها على كلّ من تحدّثه نفسه على أن يتخلّى عن مسؤولية وجوده وطمس معالم حريته)).

إذاً فأنت حر، يا صديقي، حيث حريتك هذه هي التي سترحمك لتكون «النسر» الذي يحلّق عاليا لا يشغله أن رحمه الآخر أو لم يرحمه قبل الموت أو بعده.

تردّ علي بملهمك وصديقك (سارتر): الذين يطمسون حريتهم الكاملة بحجة أنهم لا يريدون الحرية، وإنما يريدون أن يعيشوا الحياة متّزنين جادّين، أو بحجة أنهم مضطرّون تحت ظروف قدرية حتمية، هؤلاء ندعوهم الجبناء.

خلْتني أُكلّم رجلا بوجهين مختلفين، متناقضين، يلبس قناعا معي ومع سواي يغيّره بقناعٍ آخر تماما.

قلتُ له: تُذكّرني بفراشة «الورقة الميتة».. ستستغرب توصيفها هكذا، أكاد أجزم، لكن توجد فراشة بهذا التوصيف، حقّاً، ولعلمك

هذه المخلوقة أسرع نوع من جنسها في التخفّي، لن تُكلّفها خدعة كهذه سوى إغلاق جناحيها، فتبدو لمن يراها كورقة يابسة، أيْ ميتة.

كنت معي كتلك الفراشة، نعم، سرعان ما تتحوّل، تحتفي بأفكارك متخفّياً من غيرك، ولو تمثّلتها في حياتك لكان أفضل لك وأنجع لها.

سامر

بعدما اندلعت حرب الثمانينيّات، عند الحدّ الشرقي لبلدنا، حسبناها لن تدوم إلّا بضعة أيّام أو أسابيع أو أشهر، أو ربّما عاماً واحداً فقط على أكثر تقدير، لكنّها خيّبتنا، جميعنا، إذ أكلت الأيام والأسابيع والأشهر والأعوام، يااااه، فيئسنا من أيّة نهاية قريبة لها.

لقد ضمّت لمحرقتها الابن الأكبر لعمّي «ستّار» وهو (سامر)، كما صنعت مع «غيث» ثاني أبناء خالتي «وداد»، فصرت أنتظر إيابه بصبر، فُطرت عليه، دون أن أدري بأنّ للحياة مقادير أخرى، ليست مثلما أتوقّع، تضع لي في حساباتها معاييرها المحتمة.

آنذاك نضج جسدي، حيث لم أكف عن تعلّقي المرَضي بأبناء العمّ و الخالة هذين، فيما حباني الله بقوام طويل، كذلك بوجه جميل، رغم نحافتي الواضحة، الفاضحة!، التي عانيت منها كثيرا، بل أكثر من كثير، ممّن يشاهدني فيسخر مني، منذ الوهلة الأولى،

حتى يصيّرني مثار تندّره، لهذه الدرجة، أسمع كلماته الهازئة بي: أهاتان ساقان أَم عودا ثقاب؟!، تصاحبها قهقهات تسمّم مساماتي فأتقيّأها مرّاً، كلّما صادف أن مررت بشباب في طريقي من البيت إلى المدرسة، ثم العكس، وبينما زميلاتي يتباهين بأجساد ممتلئة، ذات صدور متكوّرة لافتة للنظر، أُخفي أنا جسدي بملابس هفهافة، واسعة، كي تُضيف له، ساترةً نحافته، ما أحسبه بعدا ذا حيّز في الفراغ!

طال دون جدوى انتظارُ بيت عمّي لـ(سامر)، مذ تمّ نقله من معسكر تدريب إلى جبهة قتال، فيما ظلّت معارك الحرب مستمرة.

هكذا سيغدو درب سعادتي ملغّماً!

أهجسني، حينذاك، كمن تسلّق جبلا ثم تُرك عند أعلى قمّته وحيدا، فلا كلاليب لديه ولا حبال، تتربّص به مخالب وحوش تتكاثر، ذات عيون راصدة تمتلئ بشرر يُطفئ جذوة وصوله، فمن أحببته تركني، لوحدتي، ما عاد يشاكسني بمزاحه الذي يفيضه عليّ.

لقد أُسر (سامر)، هناك في الجبهة، فبتنا لا نعلم عنه شيئا.

بعد سنوات، لم يعد عددها يهمّني، وصلت لبيت عمّي رسالة من الصليب الأحمر الدولي تخبرهم بأنه سيعود إليهم، فظلّت أنظارهم ترقب طريقه، وقد عاد لاحقاً، بحقٍّ، يصطحب معه زوجة و طفلاً!

منار

أُناجي امرأة، ذات شعر أبيض، تطل على شاشة تلفاز، صغيرة أمامي، تغمرها جرأة و جبروت، فضلاً عن كبرياء، مختمرة الكينونة، مُتشرّبة بالعزّ والزهو، تمكّنت من اصطياد سعادة بعيدة، هكذا كانت دائماً، طاردتها طويلا دون يأس، لاحقتها من ميناء فشاطئ إلى مطار فسماء، مردّدة لنفسها: لا ضير من السعي الحثيث حتى لو كان فيه هلاكك.

كانت زنزانتي الرطبة نقطة انطلاقي الجسور إلى أقصى بلاد البيضاء، بعدما يئست تماماً مخيّبة ظنّي في الانتظار، حيث لاحت لعينيّ تلال ثلج صباحي لفحت جلدي، المدبّغ بحرارة شمس الجنوب، لأتمغّط دافعة عني قيحاً ملأ رئتيّ، كذلك روحي، فأزدهر حين أطأ غابات، تسبح في صيف ما عاد يشوي قدميّ، إذ أعدو في شاسع من الاخضرار بالغةً مداه الثر.

اليوم لم أعد أبحث عمّن تشبهني، أبداً، دفنت القطّة العمياء، التي تذكّرني بي، لن أجعلها تموء بحثا عن طمأنينة زائفة لتنجو من رحلة ركل بأنياب صفر سامة!

أُتمتم بما حفظت من شعر للمتنبّي: أريدُ من زمني ذا أن يُبلّغني .. ما ليس يَبلغه من نفسه الزمنُ.

فمنْ يفتت جمر حنجرتي الآن؟ يعاضدني!

إذا صرخ أحدهم، من نافذته، يبدأ الجميع صراخاً بصوت يكاد يلامس صوته، للتخفيف عن ألمه، كما يحدث في منطقة ما من هذا العالم الواسع الكبير.

لكن أن أصرخ أنا، هنا، لم أكن أحسبني سأفعل ذلك يوما بعد سنوات الانتظار البائسة.

فلولا الدراسة، حيث الزميلات الصديقات، لما تمكّنت من الصمود.

آه منك يا (منار) لحكايتك الغريبة مع من أحببْتِ، ذلك الشاب المثقف، وأنت تُصرّين أن تبقي معه: أتباهى به أمامكن.

ضخمة، أو ممتلئة، سمراء، بشعر أسود كثيف، ذات ضحكة محبّبة لا تفارق شفتيها.

تقطن في بيت بسيط مع أخ وأخت وأُمّ، طيبة هادئة، عرفت منها أنّ أباهم متوفّى مذ كانوا صغارا.

تحكي لي عن حبيبها الوسيم، القارئ للكتب، آخذة في الإلحاح إلّا أن تسرّني بكلّ ما يختلج في صدرها لأحكم بصدق مشاعره نحوها!

أيّ مشاعر؟! أيّ صدق؟!

لطالما كاشفتني أن أمّه ترفض علاقته بها، تماماً، بل تُظهر لها تجبّرا، بغير مبالاة، فتقاسي الويل منها، دائما، إذ تزدريها كأنها نكرة.

تُغمغم: لا أعرف (لماذا؟)!

حسبتُ الأمور من وجهة نظر محايدة، في رأسي، فتيقّنت من أنّ هذه المرأة، المتجبّرة؟، أُمٌّ ترى أنّ أبنها يستحق زوجة أفضل من (منار)، زميلتي و صديقتي، أو تبحث له عن عائلة متمكّنة، ترفع من رصيده، فيما حبيبته بالكاد توفّر لها أُمّها مستلزمات دراستها.

المهمٌّ حكت لي، أدخلتني لبئر نفسها، فأيّ عقل تمتلك؟!

لا أعرف لمَ مسّتني حكايتها، حقّاً، فدعوت الله ألّا يُصيبها أيّ مكروه.

ماذا أقول لأُمّها المسكينة، الطيبة الهادئة، التي تعرف مدى رفقتي الدائمة معها؟! بدأت كلامها صاخبة: جلستُ على كرسي قبالته أحاوره في الكتب، أُحدّثه عنها، لكنّني بصراحة أردت أن تطمئنّ نفسي لمن سيختارها شريكةً، مثقّفة مطّلعة؟!، كأنّ صورة ما زالت لم تُمح من تلافيف رأسي، قبعتُ فيها لسنوات، ها هي تظهر من جديد الآن.

ثمّ بدت مشوّقة: دار حوارنا منسابا، كماء نهر لا يعكّره شيء، محوره رواية «الجريمة و العقاب»، لـ«دوستويفسكي»، إذ تطرّقنا لحالة بطلها النفسية بعد قتله للمرأة المرابية حيث انقضاض الخوف و الرعب على نفسه فازديادهما مع توالي الأيام وإصابته بتشوّش الفكر و الاتّزان...

لكنّها انفجرت بغتةً: كذبابة نشّتني أُمّه من بيتها، البارحة، مردّدة على مسامعي عبارات جارحة، قاسية، استشعرتها كخدوش على جلدي، متصارعة، تكاد تبثّني سمّاً، تزرعه في نخاع عظمي، لكأنّها تقتصّ مني.

بعدها غدت حيرى: ما حيلتي معه؟، إذاً، وقد دأب على أن تكون صباحاته معي مشرقة ذات كلمات نديّة منمّقة، يسيل لها لعابي كأنّني فتاة غر لم تتعلم من عمرها أي شيء، أظلّ أردّدها، متمسّكة بخيوط تسلسلها في ذاكرتي، خوفاً من تبخّرها عن رأسي الذي أمرضه بنفث سجارته المحترقة، التي ما فتئ ليتركها بين أصابعه، فحوّلني بها إلى سحابة دخان خانقة.

أكملتْ تصارحني بإمعان: تريدين الحقيقة؟، يا «أسماء»، لم أستطع أن أتوازن، لألملم شتات نفسي، إذ لاحظته يخربش كلمات على ورقة صغيرة، فيما أُمّه مستمرة في معزوفتها النشاز تلقي بها كصخر يتهاوى

على أُذنيّ، دسّها في يديّ، بعيدا عن عينيها، كتب فيها بخط مرتبك ((لمّا نصل إلى الألم الكبير بعد، حتى الآن، حيث السعادة المطلقة .. إنّها مرحلة فوق أخرى، لم نزل في البدء، فتدثّري بالصمت)).

يا إلهي، أووه، أُعاين فردوس السراب الذي يغريها به، من خلال كتابة كهذه، فتعجّ أشباح «اسماعيل، نزار، سلام» بين عينيّ!

أزهار

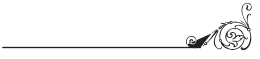

آه أيّتها المرأة العصفورة، آاااه منك، أنت تنقرين ورقاً أخضر، سيتجعّد، فيما تحوكين كلمات بمنقارٍ لوقت فائت، فائض، كأنّك تثقبين زمنك، متناسية تيبّس الورد، فيتساقط قشٌّ سراباً!

هالني أنّ كلّ شيء ظلّ كما هو، على حاله، حيث أُمّي زادها العمر عجزاً، كان الله في عونها، كما أنّ أبي ما زال مختفيا، يأكل من جرف روحها، ثم هنالك أختاي «مريم» و «لمى»، اللتان تصغرانني سنّاً، قد شقّت كلُّ واحدة منهما طريقها في حياة اختارتها.

أما أنا، البعيدة عنهم الآن، فلم أزل محتفظة بذاكرة، تحتشد بـ»أسماء فقط»، ما خانتني يوماً، أيّ يوم، تنساب أحداثها طازجة، طريّة، تُستنبط منها حكايات للأعماق، بتعاقب سنوات، تُضخّ إلى سطح الحياة.

هل تسقط هذه الذاكرة، بشخوصها وشخصيّاتها، كذاك الطائر الكبير، الأبيض..، الذي سقط من السماء ذات ليلة عاصفة، يُبحث فيها عن دفء!، حيث ألقت به ريح عتيّة على سطح بيتنا؟

تلك الليلة العاصفة، غير الدافئة، عشنا رعبا لا يُصدّق.

كنت على وشك النوم متأخّرة، بُعيد منتصف الليل، حين سمعت صوت شيء ما يسقط بقوة، بينما ثمة أصوات عمّت البيت، فقمت من فراشي، متعثّرة بأذيال منامتي، رغم نعاس يُجبر عينيّ على الانغلاق. آنذاك كانت عيوننا حائرة، كلّها، تتطلّع نحو الباب الخشبي للسلّم الحجري، المؤدّي إلى السطح، تودّ لو اخترقته، إذ كان مغلقاً، فيما أيقنت أنّ أحداً وراءه، أحسبه لصّاً مسلّحاً، يحاول اقتلاعه بقوة. تقدّمت بخوف نحوه، خلفي أُمّي ثم أختاي، أفكّ عنه سلسلة رُبط بها قفل صغير ((لا أعرف ما فائدة أن نقفل باباً لبيت مكشوف، أصلاً!، لكن ثمة حكمة عند أُمّنا: أقفلْ بابك ولا تخوّن جارك)). ما أنْ فتحته، بعدما فككْت سلسلته، تهاوى طائر كبير، أبيض.. منقاره ذو جيب برتقالي تحته، تكوّم وسط الحوش، مترنّحاً، كأنّما أصابه إعياء! بدا متخبّطاً في حركته، يمكن السيطرة عليه، لكنّنا لم نستطع إمساكه إلا عند الاستعانة بشباب، من زقاقنا، وضعوه على شرشف، بعد جهد جهيد، ثم حملوه خارجاً فطار، من جديد، ربما سيلحق بسربه الذي تخلّف عنه.

هذا ليس شيئا أغرب من خيال جامح!

صادفت مشاكل كبيرة مع بشر كثْر!

كنت مثل قطة تلعق جراحها، إذ ضربها صغار بأحجار، لا تنتظر أحداً يضمّدها، حتى من كبارهم، فهي تعرف بألّا أحد يهتمّ لأمرها.

ذات مساء، لا غرابة فيه ولا مشكلة بل ولا حتى «قطّة»، قرّرت، دون قصد مفهوم!، أن أزهو بفستان جميل، ذي ألوان زاهية، ثم أضع مكياجاً خفيفاً، هادئاً، يُظهر تقاطيع وجهي، يُبرز ما يتمتّع به، وحين أنظر إليه في مرآة، قبالتي، أحسّ بأنّه يستصرخني: أنت أنثى يا هذه!

ها أنا امرأة ذات وجه أنثوي، إذاً، بهذا أهمسُني، بعض وقت، لأُعطي نفسي دقائق قليلة فينجلي صدأ أيامها عن ناظريّ.

ليكن، خارجة من سوداوية تلفّني بظلامها، هكذا وضعت حُمرة على شفتيّ فبودرة على وجنتيّ ثم خططْت بقلم كحل فوق جفنيّ وارتديت فستاناً ذا ورود ذهبية يصلح للمناسبات المفرحة.

دُقّ باب بيتي، الآن، طلّ عليّ شابٌّ، بعدما فتحته موارِبة، يرتدي زيّاً خاصّاً بمستخدَمي المشاتل، في مركز المدينة، يحمل باقة «غاردينيا»، بكلتا يديه، سلّمها لي مع ابتسامة محبّبة: أنا من مشتل (أزهار)، سيدتي، هذه الباقة مرسلة لك.

فضضْت نايلونها، حيث فاض عطرها أخّاذا كبياضها، فإذا بمغلّف طُويت داخله ورقتان، بعناية، إحداهما صغيرة يخبرني فيها بأنه ناضبٌ من دوني، يشعر بطاقة نفسية سالبة، مترجّياً منّي، بصدق؟، أن أفيض في مجاله الكوني من جديد كطاقة موجبة، تُعينه على إكمال مواصلته للحياة، كي أهب روحه السلام فاكّة أسرها من حزن متمكّن منها غالبٍ إيّاها!

تبسّمت، لكن بمرارة، هامسة لنفسي فقط: لا تزال مجرّد رغوة خفيفة، سريعة التلاشي، كما أنت، نرجسي أناني، لن ترى سوى مصلحتك.

تراجعت خطوات، كأنّي مصدومة بنفسي أيضاً، أُقلّب في رأسي صورا لحياتنا معاً مختلفة اللقطات، كلّها ذات خلفية سوداء رغم أنّها مؤطرة بشكل راقٍ جدّاً!، فيما أفتح الورقة الكبيرة، الثانية، لأجد اسمي مكتوباً بحروف متقطّعة أحاطتها قصيدة غزل!

ضحكت كثيراً، بقهقهات عالية، ثم غمغمت: كأنّني ذاك الطائر الكبير، الأبيض..، الذي عرقلته ريح عاصفة، عن سربه، فتعثّر متهاوياً على سلّم بيتنا، بعدما فقد توازنه، لكنه مدّ جناحيه، رغم كلّ ما حصل له، ليحلّق عالياً من جديد...

المحتويات

الإهداء 5

جبار 7

هيدرا 12

جينيا 16

غانم 20

أسماء 23

جليلة 29

مريم 33

لمى 36

سعاد 40

إسماعيل 44

ثناء 49

ساهرة 53

لبنى 56

نزار 59

سامي 65
هنادي 69
زينة 72
أنهار 77
حسنة 80
راسهن 82
سميرة 84
سالم 87
جاسمية 89
صبرية 91
جواد 94
نعيمة 96
سلام 98
بتول 101
غيدان 103
طبر 105
جمال 108

عدنان 111
جاسم 116
غيث 119
سارة 124
أدونيس 131
سيكا 134
علاء 137
داغر 140
شنشل 143
سارتر 148
سامر 151
منار 153
أزهار 158